مقدّمة

ليست في مناهجنا الدراسيّة تدريس مادة الحكمة أو فقه الحكمة التي ركز عليها القرآن الكريم في آيات كثيرة زادت في مادتها عن مائة وعشرة مواضع غير ما ورد في السنة النبوية المطهرة من إشارة إليها بل إن حياة الرسول ﷺ كلها تتسم بالحكمة وتجسدها سلوكاً وقولاً. والحكمة تعتمد على العقل والتدبّر في الأمور فهي مادة علمية سلوكيّة وجه إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] والسنة النبوية في قوله عليه الصلاة والسلام "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضشي بها ويعلّمها"[2].

فالحكمة يمكن تعلّمها واكتسابها عن طريق الالتزام بالمبادئ والسلوكيات التي جاءت في القرآن الكريم والسنة المطهرة ايمانا وعملا وخلقا وسلوكاً باعتبار الحكمة هي معرفة الأحكام الشرعية والعقدية والسلوكية والعمل بها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

---

(1) البقرة الآية ٢٦٩.

(2) رواية عبدالله بن عمر- صحيح البخاري ج١ ص ٥٧- ٥٨.

(3) آل عمران الآية ١٦٤.

"فتزكية النفس ثلث، وتعلّم الكتاب ثلث ثان، وتعلّم الحكمة ثلث ثالث ومن أخذ بالحكمة فقد أخذ بثلث الدين ومن أضاعها أضاع الدين ولا شك".

والحكمة هذه هي مادة نجاح الناجحين، وسرّ فلاح المفلحين فتعلمها فقه في الدين، والعمل بها عمل بيقين، والمسلم مطالب أن يتعلم الصلاة والصيام، وفرائض الإسلام وهذا مما لا يغيب عن ذهن أحد، كما أنه مطالب أن يتعلّم الأخلاق الإسلامية، والشمائل المحمديّة، وهذا أيضا لا يغيب عن ذهن أحد، لكنه أيضا مكلف بالأخذ بهذه الحكمة علما وعملا، وهذا ما غاب عن أذهان الكثيرين[(١)].

ومما يؤكد اكتساب الإنسان للحكمة أن لقمان عرّف بأنه اكتسب الحكمة من غضّه لبصره، وكفه للسانه، وعفته في طعامه، وحفظه فرجه، ووفائه بعهده، واكرامه لضيفه، وحفظه لجاره، وتركه ما لا يعنيه[(٢)].

والعلاقة وثيقة بين الحكمة والبصيرة لأنهما من أعمال القلوب والعقل فإن الله تعالى وصف الإنسان بأنه على نفسه بصيرة لأن البصيرة هي القدرة على النفاذ في الأشياء ومعرفتها، وحسن تقديرها وإحسان التصرّف فيها ولذلك جعلهما الله أداتين، من أدوات الدعوة ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[(٣)] وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[(٤)] وقد فسر سيدنا عبدالله بن عبّاس

---

(١) نداء إلى الإسلاميين، فلنتعلم الحكمة د. محمد خير الشعال ص ٢١.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص ٢٢٤.

(٣) النحل الآية ١٢٥.

(٤) يوسف الآية ١٠٨.

الحكمة بأنها النبوة وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول عن سيدنا داود وسليمان "وكلا آتيناه حكماً وعلماً" فإن الحكمة تكون من النبوة أو قريبا منها وهذا ما جاء على لسان رسول الله ﷺ حين جاءه وفد قبيلة الأزد إذ حكى "سويد الأزدي" قال: "وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزيّنا فقال: من أنتم؟ فقلنا: مؤمنون. فقال: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ فقلنا خمس عشرة خصلة، خمس آمنا بها، وخمس عملنا بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها للآن، فإن كرهتها تركناها.

فقال ﷺ: فاذكروا ما عندكم. فقالوا: أمّا خمس الإيمان فهي: أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت. وأمّا خمس العمل فهي: أن نشهد الاّ إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن نقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا.

وأمّا خمس الجاهلية فهي: الشّكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمّر القضاء، والصدّق والثبات عند الحرب واللقاء، وترك الشماته بالأعداء.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أدباء فقهاء عقلاء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء. من خصال ما أشرفها وأزينها وأعظم ثوابها، ثم قال رسول الله ﷺ: وأنا أزيدكم خمسا ليتم لكم عشرون. إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا

في شـيء أنتم عنه زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما انتم عليه تقدمون، وفيه تخلدون[1].

فهـذه الخـصال هـي جماع الحكمـة وآثارهـا ونـتائجها لأن الأمة المسلمة مطالـبة بـادراك سـر وجـودها في الحـياة علـى مـستوى الأفـراد والجماعـة وفـق قوانين الله في الكون وحسن التخطيط والتنفيذ والإدراك للأهداف في ميادين الحياة المختلفة هي أصل الحكمة وهدفها لأن الحكمة هـي فهـم كل إنسان لوظيفته في الحياة، وفهم المجتمع لوظائفة فيها واتقان الأداء وفقاً لمبادئ الإسلام ومقاصده.

وإنّ تعلـم الحكمـة وفقـه الحكمـة لم يكـن لهما نصيب في كتابات متخصـصة ولا في مـناهج التعلـيم عـند المسلمين قديما وحديثاً مع ورود الحكمة دائما في القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارها من وسائل المسلم في الحـياة والدعـوة كاولـئك الـذين مـدحهم رسول الله ﷺ بأنهم علماء حكمـاء فقهـاء كـادوا مـن فقههم أن يكونوا أنبياء وهذه الحكمة هي التي جـسّدها المسلمون الأوائل في حياتهم منهجا وسلوكا، قولا وعملا وسيلة وهدفاً.

وفي محاضـرة لـي في جامعـة اليرموك بالمملكة الأردنية قبل أعوام تحـدثت عـن هـذا الموضـوع وذكـرت خلو المواد الدراسية الإسلامية من الحكمـة وفقههـا فطلـوا مـني أن اكـتب كـتاباً يصلح للتدريس في الحكمة وفقههـا فكـان هـذا الموضـوع يشغلني لأني كنت أفكر في أن الحكمة التي نكتـسبها في الكـبر بعـد تجارب ومعاناة لا بد من أن نعلمها شبابنا صغارا

---

[1] اخرجه ابو نعيم في حلية الأولياء، والبيهقي والخطيب في تاريخ بغداد من حديث سويد بن الحارث.

حتى يختصروا مساحات في الحياة كبيرة هم في حاجة إليها. ثم إن الله سبحانه وتعالي. قيّض "لجامعة السودان المفتوحة" أن حققت لي نصف هذا الحلم في مقرّر باسم "دراسات في الحكمة والأخلاق" فكان نصف الموضوع في هذا الكتاب ونصفه الآخر سيكون في كتاب آخر يكمله ويفتح للباحثين الطريق فيه، والله أسأل أن يجعل هذا العمل لوجهه وأن يجعله ثواباً وصدقة جارية ومغفرة ورضا عنا بفضله ومنّه وكرمه إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

أ.د. عبّاس محجوب

المعمورة، الخرطوم سبتمبر ٢٠٠٤

الفصل الأوّل

الحكمة أهمّيتها وطرق اكتسابها

الفصل الأوّل

الحكمة أهمّيتها وطرق اكتسابها

أولاً- الحكمة في اللّغة

عرفت الحكمة لغوياً بتعريفات كثيرة، قد عرفها الراغب الأصفهاني بأنها "إصابة الحق بالعلم والعقل"[1]. وعرفها ابن منظور بأنها "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم"[2].

ومنه "الحكيم" للرجل الذي يتقن الأمور بعد أن أحكمته التجارب وصقلته، إذ يقال أحكم الأمر أي أتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد، فالحكيم هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، ويضع الأمور في موضعها وينزلها منازلها.

والحكمة- بفتح الحاء والكاف- قطعة حديدة تحيط بحنكي الفرس فتمنعه من الجري الشديد، وتجعل التحكم في الفرس سهلاً، ومنها اشتقت كلمة "الحكمة" لأنها تمنع صاحبها من قبيح الأفعال وسوء الأخلاق، وبما أن الحُكم هو وسيلة لمنع الظلم فإن الحكيم هو الذي تمنعه حكمته من الوقوع في الفساد، وتمنعه من الظلم وتجعله حكيماً حليماً لا يغضب، عالماً لا يجهل، متقناً للأشياء مانعاً للفساد والخلل".

---

(1) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن- مادة: حكم ص ١٢٧.

(2) ابن منظور: لسان العرب- ص ٢٧٠ – ج٣.

والحكمة في الاصطلاح: لا تختلف كثيراً عن المعنى اللغوي، حيث عرفها العلماء تعريفات كثيرة منها: "الإصابة في القول والفعل"[1]. ومنها تعريف ابن القيم الجوزية "فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي"[2].

وجملة التعريفات تبين أن في الحكمة جانباً إيجابياً، يتمثل في العمل بالعلم، والإصابة في معرفة الأشياء والحقائق على ما هي عليه، والإصابة في القول والفعل والعمل بمقتضاها، وإتقان الأمور والإعداد لكل أمر عدته، وتوخي القصد والاعتدال ما أمكن، والتصرف في الأمور بتأن وروية وتبصر، مع إدراك العلل والأسباب والنهايات، كما ذكر العلماء في معنى الحكمة إيجابا معرفة العلم والعمل به، والخوف من الله وخشيته، والإصابة في معالجة الأمور لا تكون مبنية إلا على الفهم والفقه والمعرفة والعمل بذلك.

أما في جانبها الآخر فالحكمة فيها معنى "المنع" منع النفس من الظلم، والوقوع فيه، ومنعها من الغضب والحمق والتعامل بردود الأفعال، ومنعها من الجهل والوقوع في ما يترتب على الجهل من المعاصي والآثام والفساد.

وقد وردت كلمة "الحكمة" في القرآن الكريم تسع مرات بينما نجد تسمية الحق- سبحانه- بالحكيم في أكثر من تسعين موضعاً، بينما نجد السنة النبوية مليئة بالحكمة القولية والفعلية، حيث كانت أفعال رسول الله- ﷺ- كلها متسمة بالحكمة.

---

(١) تفسير الألوسي- ص ٤١ –ج ٣.

(٢) ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين – ص ٢٩٩.

وقد عُرّفت الحكمة بأنها العلم بالأمور الإلهية والأمور الإنسانية والواجبات. كما عرفها الإمام الغزالي بأنها تشمل "العلم بالله سبحانه وتعالى وصفاته، وملائكته". وعرّفها الزمخشري بأنها "الكلام المحكم الصواب"[(١)]. أما الشيخ محمد عبده فعرفها بأنها "العلم الصحيح يكون صفة محكمة في النفس، حاكمة على الإرادة وتوجهها إلى العمل، ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح؛ كان هو العمل الصالح النافع المؤدي إلى السعادة"[(٢)].

يقول الإمام الغزالي إنّ الحكمة قوة عقلية تتلقى العلم من الملأ الأعلى، وإنها العقل العملي الذي يميز الخير من الشر[(٣)].

وقد دعا رسول الله- ﷺ- لسيدنا عبد الله بن عباس الذي قال: ضمّني النبي- ﷺ- إلى صدره وقال: "اللّهم علمّه الحكمة"، ويقول ابن حجر في تفسير الحكمة هنا "واختلف في المراد بالحكمة هنا فقيل: الإصابة في القول والفعل، وقيل الفهم عن الله، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب بالصواب... وقيل غير ذلك. وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن"[(٤)]. وقد روى الإمام أحمد الحديث عن طريق عكرمة الحديث بلفظ "اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل"[(٥)].

---

(١) الكشاف في حقائق التنزيل ج١ ص ٤٩٠.

(٢) تفسير المنار- رشيد رضا.

(٣) ميزان العمل – ص ٢٦٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري – ج٧ – ص ١٠٠.

(٥) المصدر السابق.

وبما أنّ الحكمة هو الإتقان في القول والعمل؛ فكل التعريفات السابقة شاملة للحكمة التي هي الإصابة في القول ووضع كل شئ في موضعه، ومراعاة مقتضى الحال في كل أمر ديني ودنيوي. وهي فصل بين الحق والباطل، ومنه سُميَ الحكيم حكيما لأنه يصيب الأمور عن فهم وعلم ومعرفة، وخشية الله، وفقه بالأحكام وعمل بالعلم.

وبما أن العقل هو الأداة التي يتحصل بها الإنسان المعرفة مهما كانت؛ فإن العقل أيضا أداة الحكمة. وإذا كان الفكر اليوناني يرى الحكمة فضيلة من الفضائل؛ فإن الحكمة في القرآن الكريم خير يؤتيه الله الرسل والأنبياء والصالحين من عباده ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

فالحكمة في الإسلام خير بمعنى الخيرية الواسع في المفهوم الإسلامي بحيث يشمل المعارف الدينية والخلقية والممارسات السلوكية الموصّلة لشكر الله على أفضاله ونعمه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾[2]. مما يدل على أن الحكمة تعني العمل بالمعرفة وترجمة المعرفة الدينية والخلقية إلى سلوك. فالحكمة في الإسلام عمل بالعلم وليس معرفة بالعلم، ولذلك عرّف الراغب الأصفهاني الحكمة بأنها إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات[3].

---

(1) البقرة الآية ٢٦٩.

(2) لقمان: ١٢.

(3) الراغب الأصفهاني: في غريب القرآن – مادة حكم – ص١٢٧.

فالحكمة تشمل مجموعة معان منها الحلم والرفق والعفو، والترغيب ولين الكلام، وإتقان الأمور ووضعها في أماكنها، والمجادلة بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[1].

والإمام النووي يقول عن الحكمة 'الحكمة عبارة عن الحكم المتصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحيق الحق، والعمل به، والصد عن إتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك، قال أبوبكر بن دريد: كل كلمة وعظتك وزجرتك، أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح؛ فهي حكمة حكيم'[2].

ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ...﴾ اختلف العلماء في الحكمة هنا، فقال السّدي هي النبوة، وقال ابن عباس هي المعرفة بالقرآن؛ فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبة، ومقدمه ومؤخره. وقال قتادة ومجاهد: الحكمة هي الفقه في القرآن، وقال مجاهد: الإصابة في القول والفعل. وقال ابن زيد: الحكمة العقل في الدين. وقال مالك بن انس: الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له'[3].

وبعد أن يورد عدداً من التعريفات يقول: 'وهذه الأقوال كلها- ما عدا قول السدي والربيع والحسن قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة

---

(1) العنكبوت: ٤٦.

(2) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٣.

(3) القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص ٣٣٠

مصدر من الأحكام وهو الإتقان في قول أو فعل فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الحبس. فكتاب الله حكمة وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه، وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم. ثم يقول: وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها اعتناءً بها وتنبيها على شرفها وفضلها[(١)].

ثانياً- أهمية الحكـمة

للحكمة أهمية كبيرة في حياة الإنسان في أي مجال من المجالات.

ولعل أهمية الحكمة:

أولاً:-

إنّها اسمٌ من أسماء الله- سبحانه وتعالى- الحكيم وقد تكرر هذ الاسم صفة من صفاته تعالى قرابة ثمانين مرة. فالله هو العزيز الحكيم، وعزيز حكيم، وهو عليم حكيم، وعزيزاً حكيماً، وواسعاً حكيماً، وأحكم الحاكمين، وكررت بهذه الصيغ مرات عديدة مما يدل على أن المسلم مطالب أن يتسم بالحكمة المقرونة بالعزة والعلم والخبرة والحلم.

ثانياً:-

أما القرآن فقد وصف بأنه حكيم ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٢)]، ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٣)]،

---

(١) القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ج ٣ ص ٣٣٠.
(٢) آل عمران: ٥٨.
(٣) يونس: ١.

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3]. وإذا كان الله سبحانه وتعالى- هو الحكيم وكتابه أيضاً حكيم فنحن مطالبون بتعلم هذا الكلام الحكيم.

ثالثاً:-

ولأهمية الحكمة أيضا جعلها الله صفة لأنبيائه جميعاً وامتدحهم بها ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[4]، ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[5] .. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6]. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[7].

---

(١) يس: ١.

(٢) الدخان: ٤.

(٣) آل عمران: ٧.

(٤) آل عمران: ٨١.

(٥) النساء: ٥٤.

(٦) البقرة:٢٥١.

(٧) لقمان: ١٢.

رابعاً:-

وقد امتن الله على عباده أن أرسل إليهم رسلاً يعلمونهم الكتاب والحكمة ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

خامساً:-

لأهمية الحكمة جعل الله مهمة الرسل تزكية النفوس وتعليمها الكتاب وتعليمها الحكمة لقد منّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]. ومن دعاء سيدنا إبراهيم- عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[3].

سادساً:-

لأهمية الحكمة امتدح الله من تعلمها وآخذ بها وعمل بها في حياته، وجعلها سلوكاً فكرياً ومادياً في حياته ومعاملاته؛ لأنها من مظاهر رضا الله- سبحانه وتعالى- بعبده إلي يؤتى هذا الخير الكثير ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4].

---

(1) الجمعة: ٢.

(2) الجمعة:٢.

(3) البقرة: ١٢٩.

(4) البقرة: ٢٦٩.

ولأن الحكمة تختلف عن الموعظة والجدال، فقد أمر الله الناس عامة والدعاة خاصة أن يأخذوا بها في مجال الدعوة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]. فهنالك موعظة حسنة ومجادلة حسنة؛ ولكن الحكمة كلها حسنة، لأنه لا توجد حكمة حسنة وحكمة سيئة، فالموعظة إذا لم تكن بشروطها ومكانها وزمانها وآدابها ومسائلها قد تكون سيئة، كأن يعظ أخاه وينصحه أمام الناس جهاراً نهاراً، وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

آفة النصح أن يكون جدالاً * وأذى النصح أن يكون جهاراً**

وقد ملأ الله- سبحانه وتعالى- صدر نبينا الكريم حكمة، في الحديث الذي قال فيه: "فرج سقف بيتي- وأنا بمكة- فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه"[2]، فالرسول ﷺ- ملئ قلبه حكمةً وإيماناً.

سابعاً:

ولأهمية الحكمة جعلها الرسول- ﷺ- مما يتحاسد الناس عليه ويتمناه كل عاقل لنفسه، ويغبط أصحاب الحكمة، قال- ﷺ- "لا حسد إلا في أثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها"[3].

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني- فتح الباري ج ص ٤٥٨ – ٤٥٩ كتاب الصلاة.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٥.

ثالثاً- طرق اكتساب الحكمة وتعلمها

الحكمة كما ذكرنا فيها جانب الهبة من الله سبحانه وتعالى وجانب الاكتساب والتعلم، فمن وفقه الله؛ أعطاه الحكمة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]. ولأن الحكمة خلق حسن وصفة يمكن اكتسابها وتعلمها، لأن الله سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2].

وفي حديث رسول الله- ﷺ- "ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها".

فما هي طرق اكتسابها وتعلمها؟ من هذه الطرق ما يلي:

١- قراءة القرآن الكريم:

قراءة تدبّر وتفكر وتأسي، ثم الالتزام بالسلوك الخلقي الحكيم؛ وذلك بالإقتداء برسول الله- ﷺ- في سيرته وسلوكه وخلقه وحكمته ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وسئلت السيدة عائشة- رضي الله عنها- عن خلقه فقالت: "فإن خلق نبي الله- ﷺ- كان القرآن"[4].

والقرآن الكريم ينمّي في القارئ عقله ويزيد في إمكاناته وملكاته العقلية من خلال التدبّر والتفكر والتأمّل والإدراك والفهم والتصور، فيصل إلى كمال العقل وسموه؛ فتصبح الحكمة عنده ملكة وعادة، وفي

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) البقرة:١٥١.

(٣) سورة القلم: الآية ٣.

(٤) صحيح مسلم ج ص ٥١٣.

ذلك يقول العقاد- رحمه الله- "من مزايا القرآن الكثيرة؛ مزيّة واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير، وتلك المزيّة هي التنويه بالعقل والتعويل عليه. ففي كتب الأديان الكبرى؛ إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو التمييز ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزّراية بالعقل أو التحذير منه؛ ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية؛ بل تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة، حازمة، باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي، والتي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه"[1].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾[2]، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[3]، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[5]، ويقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[6] والأحسن هي عين الحكمة.

---

(1) (عباس العقاد: الأعمال الكاملة).
(2) ص:٢٩.
(3) الحشر: ٢.
(4) البقرة:١٥١.
(5) الحج: ٢٤.
(6) الإسراء:٥٣.

٢- الاقتباس من وصاية الحكماء

من أراد توفيق الله له بأخذ الحكمة والعمل بها عليه أن يخلص لله ويصدقه حتى يكتسب الحكمة ويأخذ من وصاياهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ﴾.

فهذه الآيات جامعة لمظاهر الحكمة في الإيمان والعقيدة والسلوك مع الله ومع والديه، ومع الناس، وتدل على أن الحكمة يمكن اكتسابها وتعلمها بالالتزام بما جاء في هذه الوصايا عملاً وسلوكاً وخلقا وإيماناً، كما تدل على أن الحكمة هي معرفة الأحكام الشرعية والعقدية والسلوكية والعمل بها.

ومما يؤيد اكتساب الإنسان للحكمة وتعلمها ما رواه ابن كثير من أن رجلاً جاء إلى لقمان الحكيم وقال له: أنت لقمان؟ أنت عبد بني النحاس؟ قال: نعم، قال: فأنت راعى الغنم الأسود؟، قال: أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري؟، قال: وطء الناس بساطك، وغشيتهم بابك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي إن أنت صنعت ما أقول لك كنت كذلك. قال: فما هو؟ قال لقمان: قضّي بصري، وكفّي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقيامي بعدتي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي مالا يعنيني، فذلك الذي صيّرني كما ترى[1].

---

[1] (ابن كثير: البداية والنهاية- ج٢- ص ٢٢٤).

ومن وصايا رسول الله- ﷺ- العامرة بالحكمة القولية: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق)[1]. وعن أبي هريرة أنه- ﷺ- قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[2]. (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)[3]. ويقول فيما رواه أبو هريرة- ﷺ- (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...)[4]، وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رسول الله- ﷺ- قال: (لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة)[5]، (دع ما يريبك إلى مالا يريبك)[6]، وعن ابن عباس ﷺ- أن رسول الله- ﷺ- قال: (نعم العطية، ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها)[7]، وعن بريدة أن رسول الله- ﷺ- قال: (ثلاث من لم يأت بهن يوم القيامة فلا شئ له: ورع يحجزه عن محارم الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل السفيه)[8]. وروى الطبراني عن ابن جحيفة أن رسول الله- ﷺ- قال: (جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء)[9].

---

(١) (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

(٢) (البخاري- الأدب المفرد ص ٣٧٨).

(٣) (المصدر السابق).

(٤) (رواه مسلم) رقم ٢٦٦٤.

(٥) (البخاري- الأدب المفرد ص ١٦٦).

(٦) (الترمذي) صحيح الجامع ح٣٣٧٧- إرواء الغليل للألباني ح٢٠٧٤.

(٧) (الطبراني بإسناد ضعيف).

(٨) (كنز العمال- ج٣- رقم ٦٣٣٣).

(٩) (المصدر نفسه ٩- ٢٤٦٦١).

ولأن الحكمة تكتسب بمخالطة الحكماء ومساءلة العلماء ومجالسة الكبراء، حث عليها رسول الله- ﷺ- حيث أن سنته القولية والفعلية وما أقره وما أجاز من أحوال هي الحكمة التي قال عنها الله سبحانه وتعالى لزوجاته ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[1] وهو الذي يقول (إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك)[2].

٣- العمل بالعلم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- "قال غير واحد من السلف: الحكمة معرفة الدين والعمل به"[3]. لأن العلم بلا عمل لا قيمة له عند الله، ومن الحكمة العمل بما يعلم ومطابقة القول العمل لأن الله- سبحانه وتعالى- يحذر الفصل بينهما فيقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[4]،يقول عن المنافقين الذين يبطنون ما لا يظهرون ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[5]، ويقول الله تعالى على لسان سيدنا هود- عليه السلام- ﴿قَالَ

---

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) (ابو نعيم في الحلية).

(٣) (فتاوى ابن تيمية- ج١٣- ص١٣٦).

(٤) الصف: ٢-٣.

(٥) (البقرة: ٨-٩).

﴿يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

ويشترط في العمل شرط الإخلاص ورضاء الله وفضله وإحسانه لأنها هي التي تكسب الحكمة. وروي في أهمية الإخلاص لله في طلب العلم والعمل به؛ أن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله - قال حكي أن أبا حامد بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوما فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين فقال لي: إنك أخلصت للحكمة ولم تخلص لله[2]، لأن الإنسان قد يكون طلبه للعلم والحكمة؛ الوجاهة والشهرة، وتعظيم الناس له ومكانته عندهم، أو غير ذلك... فالإخلاص لله مقصود به مرضاته وتوفيقه وأجره.

٤- الخبرة والتجربة

تكتسب الحكمة من تجارب الإنسان في الحياة وتراكم الخبرات عنده، لذلك كان الأنبياء أعظم الناس تجربة وأكملهم خلقاً، وأكسبهم للحكمة، فهم خلاصة البشر والرحمات المهداة إلى البشر لإخراجهم من ظلام الكفر إلى نور الإسلام والإيمان، ولأن في رعي الغنم والبهائم تجارب وخبرات وصفات لا يكتسبها إلا من مارس الرعي فإن الله سبحانه وتعالى- ما بعث نبيا إلا وكان رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟- ﷺ- فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل

---

(١) هو: ٨٨.

(٢) (فتاوى ابن تيمية).

مكة)[1]، وفي رواية قالوا: أكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: (وهل من نبي إلا وقد رعاها)، فالأنبياء يكتسبون من رعي الغنم خلق الصبر وقوة التحمل، والحلم والشفقة بها، فيعينهم ذلك على تحمل أعباء الدعوة والرسالة، فهم يرعونها ويجمعون بينها إذا تفرقت ويدافعون عنها، ويتعلمون اختلاف طبائعها وعوائدها وعقولها فيرفقون بضعيفها، ويرحمون صغيرها، ويجبرون كسورها، ويصبرون على أحوالها، ويحسنون على رعايتها وتعهدها، ويتعودون على مشقاتها. وهذا كله هو الذي يهيئهم ويصقلهم ويعلمهم حمل الرسالة ورعاية البشر وتوجيههم لعبادة ربهم ولا، الغنم تتفرق أكثر من غيرها؛ قال رسول الله- ﷺ- (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم)[2].

فالأنبياء خبروا أقوامهم، وعرفوا طباعهم وعوائدهم، وفي الحديث (لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة)[3]، وعن أبي سعيد الخدري- ﷺ- عنه- ﷺ- قال: (لا حليم إلا ذو أناة، ولا عليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة)[4]. وعن عليّ- كرم الله وجهه- أن رسول الله- ﷺ- قال: (غريبتان: كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها، فإنه لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة)[5].

---

(1) (فتح الباري: ج٤- ص١٤١).

(2) (صحيح مسلم ص ٧٢ -٧٣).

(3) (مسند الإمام أحمد ٣/ ٤).

(4) (البخاري الأدب المفرد ١٦٦).

(5) (المصدر السابق).

٥- الاستقامة

الاستقامة كلمة جامعة لأمور الدين، وردت تسع مرات في القرآن الكريم، فمنها قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[1]، ومنها قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2]. وقوله تعالى ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[3]. وقوله تعالى ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾[4]، وقوله تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[5]. وقوله ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[6] وقوله تعالى ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) (فصلت: ٣٠).
(٢) (الأحقاف: ١٣-١٤).
(٣) (هود: ١١٢).
(٤) (فصلت: ٦).
(٥) (الجن: ١٦).
(٦) (الشورى: ١٥).

﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[2]. فالاستقامة هي الاعتدال دون غلو ولا مبالغة، لأنه ضد الطغيان وهو مجاوزة الحد في كل أمر، وقد سئل الخلفاء الأربعة عن الاستقامة وهم أعظم الأمة استقامة بعد رسول الله- ﷺ- فقال ابوبكر "ألا تشرك بالله شيئاً- لأن من استقام على التوحيد استقام في كل أمره على الصراط المستقيم، عملاً وقولاً وعلماً "أما سيدنا عمر- رضي الله عنه- فأجاب أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تزوغ زوغان الثعلب "أما سيدنا عثمان- رضي الله عنه- فأجاب "أخلصوا العمل لهم". وقال سيدنا على وعبد الله بن عباس "أدّوا الفرائض" وقال مجاهد "استقاموا على شهادة لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله" وقال الحسن "فعلوا بطاعته، واجتنبوا معصيته" وقال ابن تيمية "استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة"[3].

فالاستقامة كلمة جامعة للقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء، تتعلق بالأقوال والأفعال والنيات، وعنها يقول شيخ الإسلام "الهراوي" الاجتهاد في الاقتصاد لا عادياً رسم العلم، ولا متجاوزاً حد الإخلاص، ولا مخالفا نهج السنة، فالاعتصام بالسنة والاقتصاد في العمل أصلان للاستقامة".

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله: قُل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك قال: (قُل آمنت

---

(1) (التوبة: ٧).

(2) (يونس: ٨٩).

(3) (تهذيب مدارج السالكين: ص٣٣١).

بالله ثم استقم)[1]، وعن ثوبان- ﷺ- عن النبي- ﷺ- قال: (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[2].

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، وعن أبي هريرة- ﷺ- عن النبي- ﷺ- قال: (سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجوا أحدكم بعمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: وإلا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[3].

والاستقامة تتمثل في صور مختلفة منها:

١- دعوة الله أن يسلم المسلم من كل انحراف "اهدنا الصراط المستقيم".

٢- التحذير من تعدي الحدود "وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه"[4].

٣- لزوم الأمر دون غلو ولا مبالغة وتحويل الدين من يسر إلى عسر، والنهي عن الطغيان وهو انحراف عن المنهج.

٤- النهي عن الغلو كما فعل أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[5].

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٣٨.

(٢) (٢-٣ تهذيب مدارج السالكين ٣٣٢.).

(٣) (صحيح مسلم ج٤ ص ٢١٧).

(٤) (الطلاق:١).

(٥) (النساء ١٧١).

٥. بيان مصير الغلو وعاقبته وقد نهى عنه رسول الله- ﷺ- (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً، قال الإمام النووي: "المتنطعون، المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"؟؛ لأن عاقبة الغلو في الدين هو تركه كله (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين، أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا)[١].

ملامح الغلو الخالية من الحكمة

١- تفسير النصوص الشرعية تفسيراً متشدداً يتعارض مع مقاصد الشرع، فيشدد على نفسه وعلى الآخرين.

٢- تكلّف التعمق في معاني النصوص بما لم يكلف به المسلم.

٣- أما فيما يتعلق بالأحكام فإلزام النفس والآخرين بما لم يوجبه الله عبادة وترهباً، ومعيار ذلك تجاوز الطاقة مثل الثلاثة الذين استقلوا عبادة رسول الله- ﷺ- فقال لهم: (إني أخشاكم لله واتقاكم لله؛ لكني أصوم وأفطر، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

٤- الغلو في الموقف من الآخرين، أما بالمدح المبالغ لبعضهم لدرجة إيصالهم حدّ العصمة أو بعضهم بالكفر والخروج من الدين بما لم يخرج عن الدين، ومن ذلك تحريم الحلال مبالغة في التديّن.

---

(١) رياض الصّالحين- النّووي ص ٧٠ عن رواية البخاري.

(٢) متفق عليه، رياض الصّالحين ص ٦٩- ٧٠.

الفصل الثاني

أنواع الحكمة وأركانها وصلتها بالبصيرة

الفصل الثاني

أنواع الحكمة وأركانها وصلتها بالبصيرة

أولاً- أنواع الحكمة

الحكمـة نوعان:

النوع الأول: حكمة علمية نظرية

وهي الإطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأشياء بمسبباتها، خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

النوع الثاني: حكمة علمية

وهي وضع الشئ في موضعه[١]. والحكمة لا تخرج عن هذين النوعين في جانب العلم والإدراك نظرية وفي فعل العد والصواب علمية؛ لأن كمال الإنسان في معرفة الحق لذاته ثم العمل به وهو الذي يسمى بالعلم النافع فسيدنا إبراهيم- عليه السلام- سأل الله العلم والحكمة العملية "رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين"[٢]، فأتاه الله الحكمة النظرية ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣]. وآتاه الحكمة العملية ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٤]. وعلم سيدنا

---

(١) (تهذيب مدارج السالكين- ص ٢٩٩).

(٢) (الشعراء: ٨٣).

(٣) النساء الآية ٥٤.

(٤) البقرة: الآية ١٣٠.

موسى- عليه السلام- الحكمة النظرية ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[1] ثم الحكمة العملية ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2]. وقال عن سيدنا عيسى- عليه السلام- ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾[3] وهو الحكمة النظرية ثم جيء بالحكمة العملية ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[4]. أما الحكمة لسيدنا محمد نظرياً ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[5] وعملياً ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[6]. وقال في الأنبياء جميعاً ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠...﴾ وهو الحكمة النظرية ثم الحكمة العملية ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[7].

والحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسددة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات ولهذا قال تعالى ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[8].

---

(1) طه الآية ١٤.
(2) (طه: ١٤).
(3) مريم الآية ٣٠- ٣١.
(4) (مريم: ٣١).
(5) محمد الآية ١٩.
(6) (محمد: ١٩).
(7) (النحل:٢).
(8) (البقرة:٢٦٩).

فالأمور كلها يمكن صلاحها في الحكمة العلمية والعملية التي تتمثل في وضع الأمور في موضعها على علم ومعرفة. ولذلك ختم الله- سبحانه وتعالى- الآية بأن الذي يعرف قيمة الحكمة وعظمتها هم أولو العقول الراجحة والأخلاق الكاملة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١] إن الحكمة العملية هي أفضل ما يتقرب بها العباد إلى الله وأعلى ما يوصل إلى الكرامات العليا؛ لأنها مرتبطة بالإنفاق والبذل، وجمع رسول الله- ﷺ- بينهما في الحديث (لا حسد إلا في أثنين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس)[٢].

والحكمة العلمية لها ثلاث درجات:

١- أن تعطي كل ذي حق حقه، وألا تعدّيه حقه، وألاّ تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه؛ فالحكمة مراعاة أداء الحقوق في أوقاتها المناسبة بحيث لا تتقدم ولا تتأخر. وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزل إضاعة البذور وسقي الأرض، وتعدي لحق كسقيها وفق حاجتها، بحيث يغرق البذور والزرع ويفسد، وتعجيلها قبل وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله، وهذا يكون فق ما ينبغي على الوجه الأكمل وفي الوقت المناسب[٣].

---

(١) (البقرة ٢٦٩).

(٢) (صحيح البخارى ج١ ص ٥٧ - ٥٨).

(٣) (مدارج السالكين- ج٢- ص٤٧٩).

٢- معرفة أن الله عدل في أحكامه الكونية والشرعية، وعدل في وعيده، ومحسن في وعده، فهو قد حرّم الظلم على نفسه وعلى عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى برّ وجوادٌ يضع برّه وجوده، ومنعه وعطاءه في المواضع التي تقتضيها، تكون هي الحكمة لأنه يعطي بحكمته ويمنع بحكمته، ويهدي بحكمته ويضل بحكمته.

٣- أن ندعو لله على بصيرة ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]. والدعوة على بصيرة تستلزم العلم بما يدعو إليه من الأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية، وأن يكون ملما بحال من يدعوهم في جوانب حياتهم كلها وأن يكون عالما بأساليب الدعوة وقواعدها وأساسها والقائم على الآية ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[3].

---

(١) (النساء: ٤٠).

(٢) (يوسف: ١٠٨).

(٣) (النحل: ١٢٥).

ثانياً: أركان الحكمة ودعائمها

للحكمة ثلاثة دعائم هي: العلم، والحلم، والأناة، ونقيضها الجهل، والطيش، والتعجل.

أولاً: العلم

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى أمر نبيه أولاً بالعلم (فاعلم أنه لا إله إلا الله...) ثم طلب منه العمل (واستغفر لذنبك...) فالعلم أساس العمل والمقدم عليه لأن العمل لا قيمة له إذا لم يكن مبنياً على العلم، والعلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه وتمامه أن يعمل بمقتضاه[2]. والرسول- ﷺ- طُلب منه أن يستغفر لذنبه بأن يفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء والمغفرة الماحية للذنوب، ولأن للمؤمنين والمؤمنات حق الاستغفار المتضمن لإزالة الذنوب وعقوبتها عنهم فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعايبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم وقد قسم الإمام ابن تيمية العلم النافع إلى ثلاثة أقسام فقال- رحمه الله- 'العلم الممدوح الذي

---

(1) (محمد: ١٩).

(2) (عبد الرحمن السعدي: تيسير الكريم المنّان في تفسير كلام الرحمن- ص٧٣٢).

دلّ عليه الكتاب والسنة هو العمل الذي ورثه الأنبياء، كما قال النبي -ﷺ- (إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1].

١- القسم الأول

علم بالله وأسمائه وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما.

٢- القسم الثاني

علم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلية، وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص والوعد والوعيد، وصفة الجنة والنار ونحو ذلك.

٣- القسم الثالث

العلم بما أمر الله به من العلوم المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله ومن معارف القلوب وأحوالها، وأحوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، ويندرج فيه ما وجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة فإن ذلك جزء من علم الدين[2].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي- رياض الصّالحين ص ٣٤٤.

(٢) (سعد بن علي القحطاني- الحكمة في الدعوة إلى تعالى ص ٤٥).

ثانياً- الحلم

وهو مرادف للعقل ويقصد به ضبط النفس وكظم الغيظ إذا ما غضب المرء أو تعرض لإهانة واستفزاز وصفة الحلم لا يتصف بها إلا صحب الحكمة والعلم والتساهل مع الناس، والصفح والعفو عنهم، وقبول أعذارهم فعندما نزل قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]، سأل رسول الله- ﷺ- جبريل (ما هذا؟ فقال له جبريل: إن الله يأمرك أن تعفو عن من ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك)[2] فالحليم يكظم غيظه ويعفو ولا يقابل السفيه بسفهه فقد روى أنس عن حلم رسول الله- ﷺ- فقال: كنت أمشي مع رسول الله- ﷺ- وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه إعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي- ﷺ- وقد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[3].

والآيات كثيرة تربط بين الحلم والعلم، والحلم وكظم الغيظ والحلم والخبرة مما يدل على أن الحلم من أعظم دعائم الحكمة مما جعل الرسول- ﷺ- يقول للمنذر بن عائذ بن المنذر- أشجّ عبد القيس- وكان سيداً في قومه فيما روى عبد الله بن عباس- ﷺ- (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[4]. وسبب ذلك أن الرسول- ﷺ- عندما جاءه

---

(1) (الأعراف:١٩٩).

(2) (الإمام النووي- رياض الصالحين- ص ٢٨١).

(3) (المصدر السابق).

(4) (رواه مسلم/ رقم ١٨- رياض الصالحين- ج١- ٤٨).

وفد عبد القيس قال لهم: (تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم، ولكن الأشج قال: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل على شيء أشد عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا، ومن أبى قاتلناه، قال: صدقت إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[1].

طريقة اكتساب صفة الحلم

هناك عدة طرق إذا سلكها المرء وحرص عليها كان حليماً حكيماً وهي:

١- الرحمة بالجهال فإنها من أوكد أسباب الحلم.

٢- القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة.

٣- الترفّع عن السباب، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة.

٤- الاستهانة بالمسيء.

إذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من إجابته السكوت**

٥- الاستحياء من جزاء الجواب، وهذه من صيانة النفس، وكمال المروءة.

٦- التفضل على الساب، وهذا من الكرم وحب التالف.

٧- قطع السباب، وهذا من الحزم كما قال الشاعر:

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى ** وفي الخرق أغراء فلا تك أخرقا

---

(١) رواه مسلم رقم ١٨- رياض الصّالحين ص ١٩٨.

٨- الخوف من العقوبة على الجواب، وهذا مما يقتضيه الحزم، فقد قيل: الحلم حجاب الآفات.

٩- الرعاية ليد سالفة، وحرمة لازمة، وهذا من الوفاء وحين العهد قال الشاعر:

إن الوفاء على الكريم فريضة * واللؤم مقرون بذي الإخلاف**

١٠- المكر وتوقّع الفرص الخفيّة وهذا من الدهاء، وقد قيل: من ظهر غضبه قلّ كيده. وقال بعض الشعراء:

وللكف عن شتم اللئيم تكرّماً ** أضر له من شتمه حين يشتم[١]

ثالثاً: الأناة

الأناة في اللغة

التثبت في الأمور وترك العجلة، وتأتي في الأمر: ترفق، وتمهّل ولم يعجل فيه وانتظر وأمهل. والأناة: التبيّن والتثبت في الأمور يقال: تبين في الأمر. والرأي: تثبت، وتأنى فيه ولم يعجل، ويأتي التبين بمعنى التبصّر والتعرّف والتأمل يقال: تبصر الشيء وتأمل في رأيه: تبين ما يأتيه من خير وشر[٢].

---

(١) (الماوردي: أدب الدنيا والدين ٢١٤).

(٢) (المعجم الوسيط- ج ١ ص ٣١، ومختار الصحاح- ص١٣).

والأناة صفة مرتبطة بقوة الإرادة في النفس، والقدرة على التحكم فيما يتعرض لها من انفعالات، والمتطلعة إلى الكمالات، فالأناة وسيلة الحكيم في أن يزن الأمور بالعقل. ويكبح الانفعال بالصفح ويضع الأشياء فيما أن توضع فيه، وأن يتجنب ما يعرضه للإخفاق والخطأ والزلل نتيجة التعجل في الأمور. والقرآن الكريم جعل الأناة تربية وتوجيها لرسول الله- ﷺ- وتعليماً بأن لا يتعجل الأمور فالله ميسر له أمره ومبين له آياته ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1]. وأمر الله- سبحانه وتعالى- المؤمنين بالأناة والتثبت في الأمور أقوالاً وأفعالاً وتوثيقاً وتدبراً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[2]. وعدم التأني والتثبت يلحقان بالإنسان أضراراً كثيرة، ومفاسد جمة؛ حيث أن الإنسان يبني تصرفاته وحركته وفق ما يتلقى من أخبار ومعلومات فإذا لم يتحلّى بصفة الأناة وقع في مشاكل كثيرة وضيع مصالح كثيرة أيضاً.

بل إن رسول الله- ﷺ- يعلّم أصحابه التأني حتى المجيء للصلاة فيقول لهم: (إذ أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فآتكم فأتموا- وزاد- فإن أحدكم إذا كان يعمد على الصلاة فهو في صلاة)[3].

---

(1) (القيامة: ١٦-١٩).

(2) (الحجرات: ٦).

(3) (متفق عليه: رياض الصالحين- ٣١٠-٣١١).

ومن التربية على الأناة في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

ثالثاً: الحكمة والبصيرة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] والعلاقة وثيقة بين الحكمة والبصيرة، فكلاهما من أعمال القلب والعقل، وقد وصف الله- سبحانه وتعالى- الإنسان بأنه على نفسه بصير، والبصيرة هي القدرة على النفاذ على الأشياء ومعرفتها وحسن تقديرها والقدرة على التصرف فيها. ولما بين البصيرة والحكمة من علاقة قوية دعا الله- سبحانه وتعالى إلى اتخاذها وسيلتين في الدعوة إليه فقال ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾[3]، كما قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4]. ومن هنا فإن تكوين البصيرة في قلب المؤمن غاية من غايات التربية ووسيلة من

---

(1) (الإسراء: ٣٦).

(2) (آل عمران: ١٦٤).

(3) (النحل: ١٢٥).

(4) (يوسف: ١٠٨).

وسائلها أيضا، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1] والبصيرة والحكمة تعنى التمييز بين الحق والباطل والصواب والخطأ عن طريق الإحساس الداخلي أو الوجدان، وهما من هبات الله على الناس، فالله سبحانه وتعالى ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]، لأن الحكمة هي نفاذ البصيرة إلى سنن الحوادث ومجريات الأمور وإتقان العمل، والتصرف دون صدام مع قوانين الظواهر في ضوء ظروف العصر الذي تواكبه؛ فهي لدى الفقيه القدرة على استنباط التشريعات والأحكام اللازمة في ميادين الحياة المختلفة حسب الظروف والأحوال، وهي لدى المربي المسلم؛ فهم مبادئ التربية وأهدافها ومناهجها وأساليبها وإتقان التعامل بذلك، وهي لدى الإداري حسن تصريف الأمور، وهي لدى القيادة السياسية حسن التخطيط والتنفيذ في الداخل والخارج، وهي لدى الأمة؛ إدراك معنى وجودها وإيجاد تنظيم هذا الوجود ووضعه برمته ومقدراته في خدمة الرسالة الإسلامية، وبالتالي فالحكمة هي فهم كل فرد أو جماعة في الأمة لدوره وإتقان أداء هذا الدور طبقاً لمقاييس الإسلام

ووظيفة التربية أنها هي التي تبصّر بالحقائق المتعلقة بوجودهم ورسالتهم، وهي التي تربي فيهم البصيرة والحكمة وتدعوهم لها وأبصرهم

---

(1) (الأنعام: ١٠٤).

(2) (البقرة: ٢٦٩).

﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾[1] وإذا كان البصر مجاله الإدراك المادي؛ فإن البصيرة تمثل الإدراك القلبي للأشياء ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2].

ويمكن للمعلمين أن يكّونوا البصائر بما وجهه إليه القرآن من التعود على التأمل والتفكير والتدبّر والتعقل في آيات الله حتى يكون التمسك بالمبادئ والتعاليم التي فيها عن اقتناع ومعرفة تؤديان إلى اطمئنان القلوب وخوفهم وخشوع الجوارح وانقيادها، والآيات التى تحضُّ على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3] ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4]. والقلوب التي لا تعرف الحق بالتأمّل والتدبر هي التي لا تعقل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[5]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ

---

(1) (الصافات:١٧٥).

(2) (الحج: ٤٦).

(3) الآية السابقة.

(4) (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

(5) (محمد: ٢٤).

وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. أما الذين لا يتدبرون ولا يتأملون وينصرفون عن وسائل الحق فهم كما حكى الله عنهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾[2]. وعدم التعقل والتدبر والاستماع إلى الحق يؤدي بالمشركين إلى النار ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3]. أما الذين يترفعون عن فهم آيات الله وينصرفون عن الحق ويكذبون؛ فإنّ الله صارفهم عن الحق ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[4] وتتكون الحكمة والبصيرة في الإنسان بتعرفه على الحق الذي أوجد الله- سبحانه وتعالى- به الوجود، وخلق به السموات والأرض؛ لأن معرفة الحق هي التي تدفع إلى التمسك به وبناء الحياة عليه ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[5]، والآيات بهذا المعنى والتعبير كثيرة.

---

(1) (ص: ٢٩).

(2) (الأنعام:٢٥).

(3) (الملك:١٠).

(4) (الأعراف: ١٤٦).

(5) (الحجر: ٨٥).

وعلى معرفة الحق تترتب نتائج معرفة خلق الإنسان والوجود والمصير لقيام ذلك كله على الحق الذي نزل به القرآن [وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا][1]. كما أن البصائر نتائج للتفكير في عواقب الأفعال من العاصي وما يترتب على الرذائل من هلاك الأفراد والأمم والحضارات، فالله يخبرنا بأن المعاصي هي التي تتسبب في ضياع أمم وحضارات سابقة فيقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[2] ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[3] كما أن المقارنة الدائمة بين الخير والشر والخبيث والطيب والصواب والخطأ؛ يساعد على تكوين البصيرة في الإنسان، ولذلك نجد القرآن يكثر من المقارنات بين المواقف والأشياء.

ويدعوا القرآن الكريم أيضا إلى استعمال العقل في قياس الأمور لأن ذلك من دلائل البصيرة، وقد تميز أصحاب رسول الله- ﷺ- بهذه الصفة التي ربّاهم عليها مما جعل القياس عند المسلمين مصدرا من مصادر الشريعة بعد القرآن والسنة والإجماع. ولولا أن الرسول- ﷺ- مارس ذلك مع أصحابه فيما عهد إليهم من مهام لم يجدوا فيها نصاً من كتاب

---

(1) (الإسراء: ١٠٥).

(2) (الأنعام: ٦).

(3) (يونس: ١٣).

الله؛ لما كان للقياس تلك الأهمية، مثل فعل سيدنا عمر- ﷺ- في حد شارب الخمر عندما استشار فأفتاه سيدنا عليّ- ﷺ- بالجلد ثمانين جلدة قياساً على حدّ القاذف لأنه إذا شرب سكر فهَذيَ فافترى، وحدّ المفتري القاذف ثمانين جلدة. ومثل هذا كثير عند أصحاب الرسول- ﷺ، ورضي الله عنهم أجمعين- لما تميزوا به من نفاذ البصيرة والحكمة.

والتعود على الحقائق وممارستها من عوامل تكوين البصائر، لأن الحقيقة تدل على جانب الخير في الفعل، وجانب الشر فيه، فيكون القرب والبعد مبنيان على معرفة حقيقة الخير وفائدته وسوء الشر وضرره، ولا يستوي العالم والجاهل.

إن المربي يستطيع بإخلاصه وإدراكه للوسائل المتعددة لتكوين البصيرة والحكمة وممارسته لها أن يساعد على بناء جيل راجح العقل حكيم متبصر منفتح، يزن الأمور بميزان العقل والبصيرة، لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها وأبصار ينظرون بها وبصائر يعرفون بها، لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً.

الفصل الثّالث

الحكمة في الدّعوة إلى الله

أساليبها ونماذجها

الفصل الثالث

الحكمة في الدّعوة إلى الله

أساليبها ونماذجها

أولاً:- الحكمـة في الدّعـوة

الرسول- ﷺ- هو إمام الدعاة، وقائد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وسياسة رسول الله- ﷺ- الحكيمة هي التي أنقذت العرب من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلمات إلى النور، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن التبعية إلى قيادة الأمم إلى الله.

ولم يحدث في تاريخ البشرية أن قائدا أو مصلحا استطاع أن يغير معالم أمة كاملة، وينشئ دولة ذات قوة وسلطان، ورسالة وهدف كما فعل رسول الله- ﷺ- القائد الملهم والمربي الحكيم، والسياسي المصلح الذي اجتمع في شخصه الشخصية القائدة، والرأي الأصيل، والعزيمة القوية، والفراسة الصادقة، والخلق الكريم.

فالداعية إلى الله يستطيع بتجاربه في الحياة، ومعرفته للناس عوائدهم، وعقائدهم، وطباعهم، ومشكلاتهم، تفاوت قدراتهم وتباين ثقافاتهم أن يكون ناجحا في دعوته، سليما في منهجه موظفا لقدراته وإمكانياته مكتسبا الحكمة في حياته، مختلطا بالناس، متعرفا على البيئة التي يعمل فيها، والمجالات التي يتحرك فيها وهو في كل هذه الأمور يحتاج إلى طرق حكيمة ؛ تتمثل فيما يلي:

١- اختيار الأوقات المناسبة

لأن الناس ليسوا على استعداد للوعظ والإرشاد، والأحاديث، ولنا في رسول الله- ﷺ- الأسوة الحسنة؛ حيث كان يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة. وقد روى أبو وائل شقيق بن سلمة قال: كان ابن مسعود- ﷺ- يُذَكِرُنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك إني أكره أن أملّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله- ﷺ- يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[١].

وعن ابن اليقظان عمار بن ياسر- ﷺ- قال: سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته؛ مَئِنَّة، من فقهه، فأطيلوا الصلاة وقصروا الخطبة) (مئينة: بفتح الميم وكسر الهمزة ونون مشددة – علامة دالة على فقهه)[٢]. وعن ابن مسعود- ﷺ- قال: (كان النبي يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا)[٣].

٢- تعهدهم بالرفق والإحسان

فالداعية الحكيم يعمل بوصايا لقمان لابنه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾[٤]، فعليه أن يقابل الإساءة بالعفو، والغلظة باللين، والحماقة بالحلم، والتهور بالأناة، والأذى بالصبر ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ

---

(١) (متفق عليه- الإمام النووي: رياض الصالحين ٣٠٨).

(٢) (رواه مسلم- رياض الصالحين: ٣٠٨).

(٣) (فتح الباري ج ١١- ص ١٦٢- كتاب العلم).

(٤) (لقمان: ١٧).

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[1]. وقد مدح الله سبحانه رسوله- عليه الصلاة والسلام- بذلك ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[2]. ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

٣- أن يكون قدوة فيما يدعوا إليه

وبخاصة في الجانب الخلقي، مثل الالتزام ديناً وخلقاً وسلوكاً؛ بالصدق والأمانة، والرفق واللين، والصبر والأناة، والتواضع والصفح، والوفاء والإيثار، والحياء والتقوى، والتفاؤل والكرم، وقوة الشخصية والإرادة، والاعتزاز بالنفس والإسلام، والقصد والاعتدال. وكما قال سفيان الثوري: (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، عدلٌ فيما يأمر به، عدل فيما ينهى عنه، عالم بما يأمر به عالم بما ينهى عنه)[4]

---

(1) (فصلت: ٣٤- ٣٥).

(2) (آل عمران: ١٥٩).

(3) (التوبة: ١٢٨).

(4) (الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٧- ص٢٢٩).

٤- معرفة أصناف الناس

فالناس فيهم المسلم الملتزم، والمسلم الذي يحتاج إلى تربية وتوجيه، والمسلم العاصي، ومنهم الملحد والوثني، وفيهم المنافق، وفيهم الجاهل والمتعلم والمثقف، وفيهم الغني والفقير والصحيح والسقيم، والعربي والعجمي. والمعرفة تجعله يعرف كيف يتعامل مع كل واحدٍ على حدة وفي جماعة، وكل يخاطبه بما يكون مفتاحاً للتعامل معه ومدخلاً لشخصيته.

٥- فهم مقاصد الشريعة:

التي يعمل إلى تحقيق مصالح العباد، ودفع الضرر عنهم، ودرء المفاسد، وحفظ الكليات المختلفة المتمثلة في الدين والنفس والعقل والغرض والمال.

ثانيـاً: أسلوب الحكمة في الدعوة

أولاً: الحكمة في منهج الدعوة

اتبع الرسول- ﷺ- اسلوب ترتيب الأولويات في الدعوة إلى الله؛ حيث بدأ ببناء العقائد في المرحلة المكية، ثم بيان الشرع والأحكام وتثبيت النفوس في المدينة، ويأتي في ترتيب الأولويات مناسبة المنهج للأحوال والأعمار والمستويات؛ فلا يعد المنهج حكيما إذا ساوى بين حالة الضعف وحالة القوة، أو بين حالة السلم والحرب، أو حالة عموم البلوى بالشئ وغيرها، كما لا يعد حكيماً إذا لم يفرق بين الكبير والصغير، والمرأة

والرجل، ولا بين العالم والجاهل، والعدو والصديق، والحاكم والمحكوم... وما إلى ذلك من أحوال ومستويات تقتضي التعريف[1].

ثانياً: الحكمة في الأساليب

الأساليب هي الطرق التي نحقق بها أهدافنا وغاياتنا في الحياة، وإذا كانت الأهداف والغايات سامية فلا بد أن تكون الأساليب الموصلة إليها سامية أيضا وشريفة، ومن الحكمة أن تتعدد الأساليب بحيث ننتقل من أسلوب إلى آخر، وإذا لم تفد الأولى، وهذا هو منهج الإسلام في التدرج ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾[2]، ومن الحكمة في القرآن إتباع الأسلوب الطيّب للسلوك السيئ ولمواجهة الشر ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3]. وذو الحظ العظيم هو الحكيم المتخذ للحكمة أسلوباً.

ومن الحكمة أن نستعمل الأساليب كلها بدءاً بالأساليب الذاتية من تزكية للنفس، وترك للمعاصي وممارسة دائمة للطاعات والتحرر من الخضوع لرغبات النفس وشهواتها.

---

(1) (محمد أبوالفتح البيانوني: المدخل إلى علم الدعوة- ص٢٤٨).

(2) (النساءالآية ٣٤).

(3) (فصلت: ٣٤-٣٥).

ومن الحكمة استعمال الأساليب الاجتماعية في الدعوة والتربية والتزكية بإتباع الرفقة الصالحة والقدوة الحسنة.

ومن الحكمة استعمال الأساليب العاطفية لأنها تمثل أثراً مهما في حياة الإنسان فهي مصدر معظم الدوافع والأعمال ولذلك خاطب القرآن العواطف في الجانب الايجابي، والعواطف الإنسانية السامية، والجانب السلبي كمعالجة العواطف المتصلة بالسلوك غير السوي.

ومن الحكمة استعمال أسلوب القصص لما لها من تأثير كبير في النفوس وقدرة على إثارة الانفعالات والعواطف والإقناع العقلي والتوجيه نحو التفكير والتأمل.

ومن الحكمة استعمال أسلوب الترغيب والترهيب، والمثوبة والعقوبة؛ لارتباط عواطف البشر بذلك، ومن الحكمة التدرج في أسلوب الترهيب أو العقاب، بدءاً بالتحذير والعتاب والإرشاد باللين... وغير ذلك.

ومن الحكمة استعمال الموعظة الحسنة لما لها من تأثير عاطفي كبير في الإنسان، ونفاذ إلى القلوب والسيطرة على المشاعر، فالقرآن الكريم اتخذ أسلوبا في مخاطبة الكبار والصغار، أما الصّغار فلأن الموعظة تجذبهم وتشد انتباههم وبخاصة إذا ارتبطت بالترغيب والترهيب، أما بالنسبة للكبار فلطبيعة المناسبة التي يخاطبون فيها وبخاصة في مجال العقيدة ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1] ولذلك كانت الموعظة أسلوباً من أساليب الدعوة.

---

(1) (سبأ: ٤٦).

ثالثاً: الحكمة في الوسائل

فالوسائل هي التي نتوصل بها إلى ما نريد، ومن ذلك اختيار المنهج المناسب لتطبيقه في الموقف المناسب والحالة المناسبة، فقد يصلح لحالة من الأحوال أو لمعالجة موقف من المواقف منهج لا يصلح غيره، فلابد من اختيار المنهج العاطفي للموقف العاطفي وأن نستعمل الدرس والخطبة أو المحاضرة أو الندوة حسب الحاجة، وكذلك وسائل الكتابة كالرسالة والمقال والكتاب والنشرة والملصقات بأنواعها. فطبيعة الموقف تحتم الوسيلة المناسبة لها.

من مواقفه الحكيمة- ﷺ

١- أقلق كفار قريش دخول حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب وغيرهم في الإسلام، وأقضّ مضجعهم تزايد عدد من يدخلون في الإسلام، فجعلوا يساومون رسول الله- ﷺ- فأرسلو إليه عتبة بن ربيعة يعرض عليه أموراً لعله يقبل بها أو ببعضها فيتركهم وآلهتهم فيما كانوا فيه.

جاء عتبة إلى رسول الله- ﷺ- فقال: يابن أخي إنّك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت بمن مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منه بعضها. قال رسول الله- ﷺ-: (قل يا أبا الوليد أسمع)، قال: يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى

تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً نراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله-ﷺ- يستمع منه قال: (أوقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال: (فاستمع مني) قال: افعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[1]. ثم مضى رسول الله- ﷺ- فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله- ﷺ- إلى السجدة منها فسجد ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك). وفي رواية أخرى أن عتبة عندما وصل رسول الله- ﷺ- إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ...﴾ قام مذعورا ووضع يده على فم رسول الله- ﷺ- وقال: أنشدك الله والرحمْ وطلب منه أن يكفّ عنه، فرجع إلى قومه مسرعاً كأن الصواعق ستلاحقه، وقال لقريش: أتركوا محمداً وشأنه[2].

---

(١) فصلت الآيات ١- ٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٠٦، تحقيق محمد فهمي- القاهرة.

وتتجلى حكمة الرسول- ﷺ- في أنه:

١- استمع إلى عتبة مقبلا عليه دون مقاطعة له حتى انتهى من كلامه.

٢- طلب منه أن يستمع إليه كما استمع إليه بهدوء وعناية.

٣- سأله إن كان يريد أن يزيد في حديثه شيئاً (أفرغت يا أبا والوليد.؟).

٤- تخير له الآيات المناسبة التي تحقق أهدافه في الدعوة والتبليغ وإنه لا يريد مقابل ذلك شيئاً من عرض الدنيا.

٢- الشاعر أبوعزة مع رسول الله- ﷺ

كان في أسرى بدر من المشركين الشاعر أبوعزة الجمحي، وكان شديد الإيذاء لرسول الله- ﷺ- بشعره فلما أسر قال: يا محمد إني فقير، وذو عيال، وذو حاجة، قد عرفتها فأمنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله- ﷺ- وأطلق سراحه، ولكنه عندما رجع إلى مكة عاد إلى ما كان عليه ناقضاً عهده لرسول الله يكتب عنه وعن أصحابه شعراً يهجوهم فيه، فلما كانت معركة أحد دعا رسول الله- ﷺ- (اللّهم لا تفلت منّا أبا عزة الشاعر). واستجاب الله لدعاء رسوله -ﷺ- وألقي النوم على أبى عزة حين كان عائداً من أحد إلى مكة، فتمكن منه المسلمون وذهبوا إلى رسول الله به فأمر بقتله. فقال: يا محمد أقلني وأمنن عليّ ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً الا أعود لمثل ما فعلت. فقال له رسول الله ﷺ (لا والله لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين لا يلدغ المؤمن من

جحرٍ مرتين، أضرب عنقه يا زبير) فضرب عنقه فهنا حكمة الحزم وعدم التردد لأن الرجل الذي لا يتعظ مما قد أصابه قبلا لا يعد حكيماً.

٣- الشاب الذي استأذنه في الزنا

عن أبي أمامة- ﷺ- أن فتى شابا جاء إلى رسول الله- ﷺ- فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا! فاقبل القوم عليه فزجروه وقالو:مَهْ مَهْ!! فقال له: (أدنه) فدنى منه قريباً قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال: والناس لا يحبونه لبناتهم، قال: افتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: والناس لا يحبونه لأخواتهم، قال افتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أوتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه وحصّن فرجه فلم يكن يلتفت الفتى بعد ذلك إلى شيء[1].

وهذا الموقف الحكيم نلاحظ فيه ما يلي:

١- أن الرسول-ﷺ- استعمل معه أسلوب الإقناع العقلي المنطقي باعتبار اقتضاء الموقف لهذه الوسيلة.

---

(١) (مسند الإمام أحمد- ج٥- ص٢٥٦-٢٥٧).

٣- استعمل معه الرفق في النقاش، والإحسان في الحديث لأنه علمنا أن الرفق خير كله ومطلوب في كل أمر من أمور الحياة، وهو سبب لكل خير وخلق قويم ومرضاة الله سبحانه وتعالى.

٤- الأعرابي الذي بال في المسجد

عن أنس بن مالك - ﷺ- قال: "بينما نحن في المسجد مع رسول الله -ﷺ- إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله مَهْ، مَهْ" كلمة زجر" قال رسول الله- ﷺ: (لا ترزموه- لا تقطعوا عليه بَوله- دعوه) فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله- ﷺ- دعاه فقال له (إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول، ولا القذر، وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن) أو كما قال- ﷺ- قال فأمر برجل من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه)[1].

فالرسول- ﷺ عالج الموقف بالحكمة والرحمة والحلم والرفق ثم علم الإعرابي ما يجوز وما لا يجوز في المسجد وعند ذلك قال الأعرابي: اللهم أرحمنى وارحم محمد ولا ترحم معنا أحداً. فلم يتركه- عليه الصلاة والسلام- بل علمه وفقهه وقال له: لقد حجرت واسعاً وهو رحمة الله بعباده التي وسعت رحمته كل شيء، حيث علم أصحابه بالحكمة كيفية تعليم الجاهل وتوجيهه دون سب أو إيذاء أو تشديد[2].

---

(١) (رواه البخاري- رياض الصالحين ص ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) (رواه البخاري، رقم ٢٩٨٠ – مسلم رقم ٢٨٥.

٥- جاء إعرابي يطلب من رسول الله- ﷺ- شيئا فأعطاه ثم قال له: (أأحسنت إليك؟) قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب الصحابة- رضوان الله عليهم- وقامو إليه فأشار إليهم الرسول- ﷺ- بأن يكفوا ثم قام ودخل بيته وزاده شئا ثم قال له: أأحسنت إليك؟ قال الإعرابي: نعم، فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا.

فقال النبي- ﷺ: إنك قلت ما قلت، وفي نفسي أصحابي من ذلك شيىء فأن أحببت فقل ما قلت بين يديّ أصحابي حتى يذهب ما في صدورهم عليك) قال الأعرابي نعم، فلما كان الغداة جاء فقال- ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي بذلك قال الأعرابي نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً، فقال- ﷺ- (مثلي ومثل هذا الرجل مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتّبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلّو بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، واستناخت، وشدّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار) وهنا أيضا حكمٌ وآدابٌ كثيرة علّمها رسول الله- ﷺ- لأصحابه منها:

١- الأدب في السؤال (أأحسنت إليك؟).
٢- الحلم والصبر على غلظة الأعرابي "لا ولا أجملت".
٣- محاولة إرضائه والإحسان إليه.
٤- محاولة الصلح بين الأعرابي وأصحابه وإزالة ما علق بالصدور.

٥- عدم الجزم برأي الإعرابي حتى يؤكده أمام أصحابه (وزعم أنه رضي بذلك)

٦- إحسان سياسة النفوس وتنقيتها وتوجيهها.

٧- إعطاء الدرس المستفاد من القصة.

٨- العنف لا يعالج بالعنف بل بالرحمة والمودّة.

٦- عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت لرسول الله- ﷺ- "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على أبن عبد ياليل بن عبد كلال- من كبار زعماء الطائف- فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله- عز وجل- قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟. إن شئت أن، أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله - ﷺ- بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً"[1].

---

[1] (فتح الباري في شرح صحيح البخاري- ج ٦/ ص ٣١٢).

فهذه الواقعة تؤكد حكمته وحلمه وبُعد نَظر للأمور وتؤكد قول الله تعالى له ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

فعدم موافقته لملك الجبال وعدم الدعاء على أهل الطائف حكم ودروس في الصبر والأناة والتحمل والشفقة والرحمة وبعد النظر، وحسن الظن بالله لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله؛ وقد تحقق ما كان يرو من ربه-ﷺ-.

---

(1) (الانبياء: ١٠٧).

نماذج في الحكمة النبوية

أولاً: الحكمة في الأقوال

١- (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز)[١].

٢- (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه)[٢].

٣- يأيها الناس، أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام)[٣].

٤- (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٤].

٥- (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)[٥].

٦- (أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً) قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم فذلك نصره)[٦].

٧- (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[٧].

٨- (لا تحقرنّ من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)[٨].

٩- (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزا، وما تواضع أحد إلاّ رفعه الله عزّ وجل)[٩].

١٠- (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[١٠].

١١- (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[١].

---

(١) صحيح مسلم (ح ٢٦٦٤).
(٢) رواه مسلم (ح ٢٥٩٣).
(٣) رواه الترمذي صحيح الجامع (ح ٧٨٦٥)- صحيح الترمذي للألباني (ح ٢٠١٩).
(٤) صحيح مسلم (ح ٤١).
(٥) صحيح البخاري (ح ١٤١٧- ٦٠٢٣) – وصحيح مسلم (ح ١٠١٦).
(٦) صحيح البخاري (ح ٦٩٥٢).
(٧) صحيح مسلم (ح ٦٤).
(٨) صحيح مسلم (ح ٢٦٢٦).
(٩) رواه مسلم (ح ٢٥٨٨).
(١٠) صحيح الجامع الصغير للألباني (ح ٩٧).

١٢- (المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٢].

١٣- (وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[٣].

١٤- (من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله)[٤].

١٥- (ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن)[٥].

١٦- (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٦].

١٧- (المرء مع من أحبّ)[٧].

١٨- (الكلمة الطيّبة صدقة)[٨].

١٩- (المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبي زور)[٩].

٢٠- (يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا)[١٠].

٢١- (من أصبح منكم آمناً في مسربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[١١].

٢٢- (انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألاّ تزدروا نعمة الله عليكم)[١٢].

٢٣- (خير الصدقة ما كان عن ظهر غني)[١٣].

٢٤- (من كان يؤمن بالله فليقل خيرا أو ليصمت)[١٤].

٢٥- (اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بما تعول)[١٥].

٢٦- (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النّفس)[١٦].

---

(١) صحيح ابن ماجة للألباني (ح ٣٢١١).
(٢) صحيح البخاري (ح ٢٥٩٧)- مسلم (ح ١٨٣٢).
(٣) صحيح الجامع (ح ١١٠٠).
(٤) مسلم (ح ١٨٩٣).
(٥) رواه الترمذي، ١٢١١، ج٢.
(٦) صحيح البخاري (ح ٦٤١٦).
(٧) صحيح البخاري (ح ٦١٦٩)- مسلم (ح ٢٦٤٠).
(٨) صحيح البخاري (ح ٢٩٨٩)- مسلم (ح ١٠٠٩).
(٩) صحيح البخاري (ح ٥٢١٩) وصحيح مسلم (ح ٢١٣٠).
(١٠) صحيح البخاري (ح ٦٩)- صحيح مسلم (ح١٧٣٤).
(١١) صحيح الجامع (ح ٦٠٤٢).
(١٢) صحيح البخاري (ح ٦٤٩٠)- صحيح مسلم (ح ٢٩٦٣).
(١٣) البخاري (ح ١٤٢٨).
(١٤) صحيح البخاري (ح ٦٠١٨) وصحيح مسلم (ح ٤٨).
(١٥) رواه البخاري (ح ١٤٢٨)- صحيح مسلم (ح ١٠٣٤).
(١٦) صحيح البخاري (ح ٦٤٤٦) مسلم (ح ١٠٥١).

الفصل الرّابع

نماذج من الحكمة عند الصّحابة

الفصل الرّابع

نماذج من الحكمة عند الصحابة

قال سيدنا عبد الله بن عمر- ﷺ- "ثلاث من قريش، أصبح الناس وجوها، وأحسنها أخلاقا، وأثبتها حياءً؛ إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك، أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة الجراح".

١- عبد الله بن مسعود

لقي عمر- ﷺ- في سفر من أسفاره قافلة والليل يحجب الركب بظلامه. وكان في القافلة عبد الله بن مسعود فأمر عمر رجلاً أن يناديهم.

من أين القوم؟ فأجابه عبد الله من الفج العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ قال عبد الله: البيت العتيق. فقال عمر إن فيهم عالماً، وأمر رجلاً فناداهم.

أي القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1]

قال نادهم: أي القرآن أحكم؟ فقال عبد الله: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى....". قال عمر: نادهم أي القرآن أجمع، فقال عبد الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(١) البقرة الآية ٢٥٥.

﴿شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]. فقال عمر: نادهم أي القرآن أخوف؟ فقال عبد الله "ليس بأمانيّكم ولا أمانيُ أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً"[2]. قال عمر: نادهم أيُ القرآن أرجى؟ فقال عبد الله: "قل ياعبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم"[3].

قال عمر: نادهم أفيكم عبد الله بن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم.

وعبد الله بن مسعود لم يكن قارئا فحسب بل كان صاحب حكمة تعلمها من القرآن الكريم، وكان مجاهدا حازماً ومقداماً، ﷺ.

٢- عبد الله بن عباس

هو ابن عم رسول الله- ﷺ- وحبر هذه الأمة وأعلمها بكاتب الله وأفقهها بتأويله وأدركها لأسراره ومراميه لما وضعته أمه حملته إلى رسول الله- ﷺ- فحنكه بريقه، فكان أول ما دخل جوفه؛ ريق رسول الله- ﷺ- فدخلت معه التقوى والحكمة.

يقول ابن عباس عن نفسه: همّ رسول الله- ﷺ- بالوضوء ذات مرة فما أسرع أن أعددت له الماء فسرّ بما صنعت ولما همّ بالصلاة أشار عليّ أن أقف بإزائه- بجانبه- فوقفت خلفه، فلما انتهت الصلاة مال عليّ وقال: ما منعك أن تكون بإزائي يا عبد الله؟ فقلت: أنت أجّل في عيني وأعزّ من أن أوازيك يا رسول الله، فرفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم آته الحكمة) فاستجاب الله لدعاء نبيه- ﷺ- فآتى عبد الله من الحكمة ما فاق به أكبر الحكماء.

---

(١) الزلزلة الآية ٧ –٨.

(٢) النّساء الآية ١٢٣.

(٣) الزّمر الآية ٥٣.

وهذه صورة واحدة من صور الحكمة عند عبد الله بن عباس- ﷺ- عندما اعتزل بعض أصحاب علي- ﷺ- سيدنا علياً وخذلوه في نزاعه مع معاوية وهم الخوارج الذين حاربوا سيدنا عليّ وقاتلوا المسلمين وكانت لهم آراء في ذلك. طلب سيدنا عبد الله بن عباس من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أن يذهب إلى هؤلاء الخوارج ويناقشهم في آرائهم فأذن له بذلك فذهب إليهم فلم ير قوما قط أشد اجتهادا منهم في العبادة فقالوا: مرحباً بك يا بن عباس، ما جاء بك؟ فقال: جئت أحدثكم. فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم قل نسمع منك. فقال: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله- ﷺ- وزوج ابنته، وأول من آمن به؟!

قالوا: ننقم عليه ثلاثة أمور، قال: ما هي؟ قالـوا:

أولها: أنه حكّم الرجال في دين الله.

وثانيها: أنّه قاتل عائشة ومعاوية ولم يأخذ غنائم ولا سبايا.

وثالثها: أنّه محى عن نفسه لقب أمير المؤمنين مع أن المسلمين قد بايعوه وأمّروه.

قال عبد الله بن عباس للخوارج: أرأيتم إن أسمعتكم من كتاب الله، وحدثتكم من حديث رسول الله- ﷺ- ما لا تنكرونه، أفترجعون عما أنتم فيه؟

قالوا: نعم، قال: أمّا قولكم إنه حكّم الرجال في دين الله، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[1].

---

[1] (المائدة: ٩٥).

أنشدكم الله، أفحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم؛ أحق أم حكمهم في أرنب ثمنها ربع درهم؟

قالوا: بل في حقن دماء المسلمين وصلاح بينهم.

فقال عبد الله: أخرجنا من هذه؟، قالوا: نعم،

قال عبد الله: أما قولكم إن علياً قاتل ولم يسب كما سبى رسول الله- ﷺ- أفكنتم تريدون أن تسبوا أمكم عائشة وتستحلونها كما تستحل السبايا؟!

فإن قلتم نعم، فقد كفرتم، وإن قلتم إنها ليست بأمكم كفرتم أيضاً فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[1]، فاختاروا لأنفسكم ما شئتم. ثم قال عبد الله للخوارج: أخرجنا من هذه أيضا؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال عبد الله: أما قولكم إن علياً- ﷺ- قد محا عن نفسه لقب أمير المؤمنين فإن رسول الله- ﷺ- حين طلب المشركين يوم الحديبية أن يكتبوا في الصلح الذي عقده معهم "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" قالوا لو كنا نؤمن أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب "محمد بن عبد الله" فنزل عند طلبهم وهو يقول (والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني).

فهل خرجنا من هذه؟؟!.

قالوا: اللّهم نعم.

---

(١) (الأحزاب:٦).

وكان من ثمرة هذا الحوار الذي أداره عبد الله بن عباس بحكمة بالغة، وحجج دامغة أن عاد إلى صفوف سيدنا عليّ عشرون ألفاً منهم ولم يبق إلا أربعة آلاف أصرّوا على عنادهم وخصومتهم إعراضاً عن الحق ورفضاً له.

ومن حكم ابن عباس -ﷺ- موعظته لأصحاب الذنوب، إذ يقول:

يا صاحب الذنب لا تأمن عاقبة ذنبك، وأعلم أن ما يتبع الذنب أعظم من الذنب نفسه؛ فإن عدم استحيائك ممن على يمينك وعلى شمالك وأنت تقترف الذنب لا يقلّ عن الذنب، وإن ضحكك عن الذنب وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب. وإن فرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وإن حزنك على الذنب إذ فاتك أعظم من الذنب. وإن خوفك من الريح إذا حركت سترك، وأنت ترتكب الذنب مع كونك لا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب.

يا صاحب الذنب: أتدري ما كان ذنب أيوب عليه السلام حين ابتلاه الله عز وجل بجسده وماله؟ إنما كان ذنبه أنه استعان به مسكين ليدفع عنه الظلم فلم يعنه.

٣- عبد الله بن حذافة السهمي

قال عنه سيدنا عمر بن الخطاب "حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ بذلك".

أما القصة فهي في أنه في السنة التاسعة عشرة للهجرة بعث سيدنا عمر بن الخطاب جيشا لحرب الروم فيه عبد الله بن حذافة السهمي وكان

قيصر عظيم الروم قد بلغه أخبار جند المسلمين وما يتحلون به من صدق الإيمان، وثبات العقيدة، واسترخاص النفوس في سبيل الله ورسوله فأمر رجاله إذا ظفروا بأسير من المسلمين أن يبقوا عليه وأن يأتوه به حيا، وكان من الأسرى عبد الله بن حذافة السهمي الذي أسروه وذهبوا به إلى ملك الروم الذي نظر إلى عبد الله بن حذافة طويلا ثم قال له: إني أعرض عليك أمراً:

قال: وما هو؟ فقال: أعرض عليك أن تتنصّر فإن فعلت خليت سبيلك وأكرمت مثواك فقال الأسير في أنفة وحزم: هيهات!! إن الموت لأحب إليّ ألف مرة مما تدعوني إليه.

فقال قيصر: إني لأراك رجلاً شهماً فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري وقاسمتك سلطاني، فتبسم الأسير المكبّل وقال: والله لو أعطيتني ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمّد طرفة عين ما فعلت.

قال: إذن أقتلك.

قال أنت وما تريد، ثم أمر به فصلب وقال لقناصته- بالرومية- أرموه قريباً من يديه، وهو يعرض عليه التنصر فأبى.

فقال أرموه قريباً من رجليه وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى، عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصّلب ثم دعا بقدر عظيمة فصب فيها الزيت ورفعت على النار حتى غلت ثم دعا بأسيرين من أساري المسلمين فأمر بأحدهم أن يلقى فيها فألقي فإذا لحمه يتفتّت وإذا عظامه تبدو عارية.

ثم التفت إلى عبد الله بن حذافة السهمي ودعاه إلى النصرانية فكان أشد إباءً لها من قبل.

فلما يئس منه أمر به أن يلقى في القدر التي ألقي فيها صاحبه، فلما ذُهب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: إنه قد بكى!! فظن أنه قد جزع وقال: ردُّوهُ إليّ، فلما مثُل بين يديه عرض عليه النصرانية فأباها، فقال:

ويحك فما الذي أبكاك إذن؟!!.

أبكاني أني قلت في نفسي: تلقى الآن في هذا القدر، فتذهب نفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفس فتلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله.

فقال الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي سبيلك؟ فقال له عبد الله: وعن جميع أساري المسلمين أيضا؟

قال: وعن جميع أساري المسلمين أيضاً.

قال عبد الله بن حذافة: فقلت في نفسي؛ عدوٌ من أعداء الله أقبل رأسه فيخلي عني وعن أساري المسلمين جميعاً؛ لا ضير في ذلك عليّ.

ثم دنا منه؛ وقبّل رأسه، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أساري المسلمين، وأن يدفعوهم إليه، فدفعوا له.

قدم عبد الله بن حذافة على عمر بن الخطاب- ﷺ- وأخبره خبره فسرّ به الفاروق أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى قال: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ بذلك، ثم قام وقبّل رأسه[1].

---

[1] (انظر الإصابة في تمييز الصحابة- ج٢- ص٢٨٧-٢٨٨، والسيرة النبوية لابن هشام، حياة الصحابة للكاندهلوي، وتهذيب التهذيب، وتاريخ الإسلام للذهبي).

٤- ضبة بن محصن العَنزى مع أبي موسى الأشعري وعمر بن الخطاب

روى أن ضبة بن مِحصِن العَنزى قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي- ﷺ- وأنشأ يدعو لعمر ﷺ، قال: فغاظني ذلك فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جُمعاً.

ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول: إن ضبة بن محصن العَنزى يتعرض لي في خطبتي فكتب إليه عمر: أن أشخصه إليّ، فأشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب، فقال: من أنت؟ قلت: أنا ضبة، فقال: لا مرحباً ولا أهلاً، قلت: أما المرحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبم أستحللت يا عمر إشخاصي من مِصري بلا ذنب أذنبته، ولا شيءٍ أتيتُهُ؟ فقال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قلت: الآن أخبرك به، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي- ﷺ- ثم أنشأ يدعو لك، فغاظني ذلك منه فقمت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه؟ تفضله عليه، وصنعت ذلك جُمعاً، ثم كتب إليك يشكوني، قال: فاندفع- ﷺ- باكياً، وهو يقول: آنت والله أوفق منه وأرشد، فهل أنت غافرٌ لي ذنبي يغفر الله لك؟.

قال فقلت: غفر الله لك، قال: ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لليلة من أبي بكر ويوم؛ خيرٌ من عمر وآل عمر.

٥- عمرو بن العاص وأرطبون الروم

وجه سيدنا عمر بن الخطاب- ﷺ- سيدنا عمرو بن العاص- ﷺ- لفتح فلسطين وكان فيها "أرطبون" الذي قال عنه الطبري "وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً، وكان وضع في الرملة جنداً عظيما وبإيلياء جنداً عظيماً، وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب الخبر، فلما جاءه كتاب عمرو قال: "قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج"[1].

وكان أرطبون الروم قد أرسل إلى عمرو بن العاص- وهو محاصر لغزّة "أن أرسل إليّ رجلا من أصحابك اكلمه، ففكر عمرو بن العاص وقال: ما لهذا الرجل غيري، فخرج حتى دخل عليه فكلمه كلاماً لم يسمع مثله قط فقال له: حدثني هل أحدٌ من أصحابك مثلك؟ فقال. لا تسأل؛ من هواني عندهم بعثوني إليك وعرّضوني لما عرّضوني ولا يدرون ما تصنع بي.

فأمر له بجارية وكسوة وبعث إلى الحاجب أو البواب "إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخُذ ما معه"، وكان أرطبون قد أدرك بدهائه أن الذي بين يديه والذي يحدثه هو عمرو أو من يثق به عمرو فبيّت قتله، ولكنّه مر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع فسأله الملك: ما ردّك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع من معي من بنى عمي فأردت الخروج فآتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطيّة فيكون معروفك عند عشرة رجال خيرا

---

[1] (الطبري: تاريخ الأمم والشعوب – ج٣ – ص٥-٦-٧).

من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت عجّل بهم، وبعث إلى البواب أن خل سبيله، فخرج عمرو وهو يلتفت ويقول: لا عدت لمثلها، وعندما بلغت الحيلة أرطبون قال: خدعني الرجل، وهذا أدهى الخلق.

فبلغت القصة سيدنا عمر بن الخطاب- ﷺ- فقال: "غلبه عمرو والله، لله دَرُّ عمرو"[١].

٦ - حوار بين معاوية وعمرو بن العاص

قال معاوية لعمرو: "من أبلغ الناس؟ قال: من اقتصر على الإيجاز وسلب الفضول.

قال: فمن أصبر الناس؟ قال: أردّهم لجهله بحلمه.

قال: فمن أسخى الناس؟ قال: من بذل دنياه في صلاح دينه؟

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: من ردّ جهله بحلمه"[٢]

وقال عن الحليم: ليس الحليم من يحلم عمن يحلم عنه: ويجاهل من جاهله إنما الحليم من يحلم على من يجور عليه ومن يحلم عمن جاهله".

٧ - معاوية بن أبي سفيان- ﷺ-

من حكمته وحلمه وقف معاوية- ﷺ- يوماً على منبره بعد أن قطع العطايا المالية عن أفراد المسلمين فقال: اسمعوا وأطيعوا، فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال: لا سمع ولا طاعة يا معاوية، قال معاوية: ولم يا

---

(١) (المصدر السابق).

(٢) (العقد الفريد: ج٦ – ص٦٢٦).

أبا مسلم؟ فقال: يا معاوية كيف تمنع العطايا وإنه ليس من كدّك ولا من كدّ أبيك ولا من كدّ أمك؟.

فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين مكانكم وغاب ساعة عن أعينهم ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال: إن أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: (الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل) وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم إنه ليس من كدّي ولا من كدّ أبي، فهلموا إلى عطائكم.

ومن حكم معاوية - ﷺ-

روى الهيثم بن عدي قال: لما حضرت معاوية الوفاة، ويزيد غائب دعا الضحاك بن قيس الفهري، ومسلم بن عقبة فقال: أبلغا عني يزيد، وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهده، وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله، فإن عزل عامل واحد أهون من سلّ مائة سيف، ولا تدري على من تكون الدائرة. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار، فإن رابك من عدوك ريب فارمه بهم ثم اردد أهل الشام إلى بلدهم، ولا يقيموا في غيره فيتأدبوا بغير أدبهم، لست أخاف إلا ثلاثة، الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله فإنه قتل أباه وخذل أخاه، وأما ابن الزبير فأنه خِبّ ضبٌ، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إربا، وأمّا ابن عمر فإنه رجل قد وقّذه الورع فخلّ بينه وبين آخرته يخلّ بينك وبين دنياك[1].

---

(1) (ابن عبدربه: العقد الفريد ج٤- ص٣٧٢ -٣٧٣).

ومن مواقفه الحكيمة أن عمر بن الخطاب- ﷺ- قدم الشام على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب نبيل فجاوزه عمر حتى أخبر فرجع إليه فلما قرب منه نزل فأعرض عنه عمر فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية: أنت صاحب الموكب آنفا مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال ولم ذاك؟ قال: لأننا في بلاد لا يمتنع فيها من جواسيس العدو، فلا بدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت، قال: لئن كان الذي قلت حقاً فإنّه رأي أريب، ولئن كان باطلاً، فإنها خدعة أديب، ولا آمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه قال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه[1].

قال معاوية لعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟ قال: غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه. قال معاوية: أعجب من ذلك أن يعطي من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة.

سئل عبد الله بن عباس- ﷺ- عن معاوية فقال: سما بشيء أسرّه واستظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسر بما أعلن فناله، كان حلمه قاهراً لغضبه، وجوده غالباً على منعه، يصل ولا يقطع، ويجمع ولا يفرق، فاستقام له أمره، وجرى إلى مدته، قيل: فأخبرنا عن ابنه فقال: كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه وأمره ونهاه فتعلق بذلك، وسلك طريقاً مذللاً له.

---

(1) (المصدر السابق – ص ٣٦٥-٣٦٦).

قال معاوية: لا زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله- ﷺ- (يا معاوية إذا ملكت فأحسن)[1]

وعن حكمته وحلمه يقول سيدنا معاوية- رضي الله عنه- "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدُّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها"[2].

ومن حكمة معاوية وحلمه أنه: أتى يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك، قال: لا تقل ذلك يا معاوية فإنها مصيبة. قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة اضرب عُنُقه يا غلام، فقال الأسير: اللهم أشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، ولا لأنك ترضى بقتلي، وإنا يقتلني في الغلَبة وعلى حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله. قال معاوية: ويحك لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسنت خليا عنه".

٨- أبو الدرداء "عويمر بن مالك الخزرجي"

قال عنه عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- "كان أبو الدرداء يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر".

مرّ أبو الدرداء- رضي الله عنه- بجماعة من قد تجمهروا على رجل وجعلوا يضربونه ويشتمونه فأقبل عليهم وقال: ما الخبر؟

قالوا: رجل وقع في ذنب كبير.

---

(١) (المصدر السابق- ص ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) (المصدر السابق).

قال: أرأيتم لو وقع في بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه؟ قالوا: بلى.

قال: لا تسبّوه ولا تضربوه، وإنما عظوه وبصّروه، واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع في ذنبه.

قالوا: أفلا تبغضه؟

قال: إنما أبغض فعله، فإذا تركه فهو أخي، فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته.

وجاء شاب إلى أبي الدرداء وقال له: أوصني يا صاحب رسول الله- ﷺ- فقال له "يا بني: اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء، يابني: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع- الجاهل- فتهلك.

يا بني: ليكن المسجد بيتك، فإني سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: "المساجد بيت كل تقي"، وقد ضمن الله- عزّ وجلّ- لمن كانت المساجد بيوتهم الرّوح[1] والرحمة والجواز[2] على الصراط إلى رضوان الله عزّ وجلّ.

---

(1) الروح : الراحة والسعة.

(2) الجواز : المرور.

الفصل الخامس

نماذج من حِكَمْ التّابعين وحكماء العرب

الفصل الخامس

نماذج من حِكَمْ التابعين وحكماء العرب

١- الحسن البصري

هو الحسن بن يسار الذي تربى في بيت من بيوت رسول الله -ﷺ- وفي حجر أم المؤمنين "هند بنت سهيل" المعروفة بأم سلمة. وقد كانت أكمل نساء العرب عقلاً، وأكثرهن فضلاً، واشدهّن حزما، وكانت من أوسع زوجات رسول الله- ﷺ- علما وأكثرهن رواية حيث روت ثلاثمائة وسبعة وثمانين حديثاً عن رسول الله- ﷺ-. وكانت من النساء القليلات اللواتي يعرفن الكتابة في الجاهلية.

بل إن صلة الحسن البصري بأم المؤمنين أم سلمة وصلت إلى أنها كانت تلقمه ثدييها عندما تخرج أمه من البيت لقضاء بعض حاجات أم المؤمنين، وكان من حبه أن يدر ثديها لبنا سائغا في فمه فيرضعه الصبي ويسكت من البكاء فكانت أم سلمة- رضي الله عنها- أماً للحسن البصري- رضي الله عنه- يتخلق بأخلاق أمهات المؤمنين حيث كان كثير التردد عليهّن في طفولته.

قصته مع الحجاج بن يوسف

لما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وطغي في ولايته تصدى له الحسن البصري غير مرة وجهر بين الناس بسوء أفعاله ثم بَنَا الحجاج لنفسه في واسط قصراً كبيراً ودعا الناس ليخرجوا للفرحة عليه والدعاء له بالبركة إلاّ أنّ الحسن البصري خرج معهم يعظهم، يذكرهم

ويزهدهم بعرض الدنيا، وقال عن القصر والناس معجبون به " لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين؛ فوجدنا أن فرعون شيّد أعظم مما شيّد، وبنا أعلى مما بنا ثم أهلك الله فرعون وآتى على ما بنا وشيّد، ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل الأرض قد غرُّوه، وأشفق عليه بعضهم وقال له: حسبك أبا سعيد... حسبك، فقال له الحسن: لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وفي اليوم التالي دخل الحجاج مجلسه وهو يتميّز من الغيظ وقال لجلاسه: تباً لكم وسحقاً !! يقوم عبدٌ من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد فيكم من يردّه أو ينكر عليه ؟ والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء.

ثم أمر بالسيف والنّطع فاحضرا ودعا بالجلاد فمثُلَ واقفاً بين يديه وأمرهم أن يأتوا به. وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن فشخصت نحوه الأبصار ووجفت عليه القلوب فلما رأى الحسن السيف والنّطع والجلاد حرّك شفتيه بكلام لم يسمعه أحد ثم أقبل على الحجاج وعليه هيبة العالم وعزّة المؤمن، وقوة المسلم ووقار الداعية إلى الله. فلما رآه الحجاج على هذه الحالة هابه أشد الهيبة وقال له: هاهنا يا أبا سعيد... هاهنا. ثم لا زال يوسع له والناس ينظرون في دهشة واستغراب حتى أجلسه على فراشه، ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه في كل مسألة بقلب ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع. فقال له الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد... ثم دعا بطيب ممزوج من أنواع مختلفة وطيّب له لحيته وودعه.

ولما خرج الحسن تبعه الحاجب وقال له: يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك، وإنّي رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع قد حركت شفتيك فماذا قلت ؟!.

فقال الحسن: لقد قلت: يا وليّ نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نقمته برداً وسلاماً عليّ كما جعلت النار برداً وسلاما على إبراهيم.

مع الخليفة يزيد بن عبد الملك وعمر بن هبيرة

بعد انتقال الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز إلى جوار ربه آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك الذي ولّى على العراق "عمر بن هبيرة الفزاري" ثم زاد سلطانه فأضاف إليه خراسان، وسار يزيد في الناس سيرة تختلف عن سيرة سلفه فكان يرسل إلى عمر بن هبيرة كتاباً تلو الكتاب، يأمره فيه بإنفاذ ما فيه ولو كان مجافياً للحق أحياناً.

فدعا عمر بن هبيرة كلاً من الحسن البصري وعامر بن شرحبيل المعروف (بالشعبّي) وقال لهما: إن أمير المؤمنين يزيد قد استخلفه الله على عباده، وأوجب طاعته وقد ولاّني ما ترون من أمر العراق ثم فارس، وهو يرسل إليّ أحياناً كتباً يأمرني بإنفاذ ما لا أطمئن إلى عدالته، فهل تجدان لي في متابعتي إياه، وانفاذ أوامره حرجاً في الدين ؟.

فأجاب الشعبي جواباً فيه ملاطفة للخليفة ومسايرة للوالي. والحسن ساكت. فالتفت عمر بن هبيرة إلى الحسن وقال: وما تقول أنت يا أبا سعيد ؟؟

فقال: يا بن هبيرة؛ خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله !! واعلم أن الله- جلّ وعزّ- يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يا بن هبيرة أنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصى الله ما أمره، فينزلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، حيث لا تجد هناك يزيد إنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.

يا بن هبيرة، إنك إن تك مع الله تعالى وفي طاعته يكفيك بائقة يزيد بن عبد الملك في الدنيا والآخرة.

وإن تك مع يزيد في معصية الله تعالى؛ فإن الله تعالى يكلك إلى يزيد. واعلم يا بن هبيرة، أنه لا طاعة لمخلوق كائناً من كان في معصية الله الخالق- عزّ وجلّ-، فبكى عمر بن هبيرة حتى بللت دموعه لحيته. ومال عن الشعبي إلى الحسن، وبالغ في إعظامه وإكرامه. فلما خرجا من عنده توجها إلى المسجد فاجتمع عليهما الناس وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع أمير العراقيين. فالتفت الشعبي إليهم وقال:

أيها الناس من استطاع منك أن يؤثر الله- عزّ وجلّ- على خلقه في كل مقام فليفعل. فوالذي نفسي بيده ما قال الحسن لعمر بن هبيرة قولاً أجهله ولكنّي أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة وأرد فيما قال وجه الله.

فأقصاني الله من ابن هبيرة وأدناه منه،وحبّبه إليه.

صفة الإمام العادل: للإمام الحسن البصري رحمه الله

كتب عمر بن عبد العزيز- ﷺ- لما ولي الخلافة إلى الحسن البصري ليخبره عن صفه الإمام العادل فكتب إليه الحسن: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد،وقوة كل ضعيف ونصرة كل مظلوم، ومَفْزَع كل

ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله والرفيق بها الذي يرتاد لها أطيب المراعي ويذودها عن مراع الهلكة ويحميها من السباع، ويكنها عن أذى الحر والقر.

والإمام العادل كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلّمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدّخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين؛ كالأم الشفيقة البّرة الرقيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكونه وترضعه تارة وتغمطه تارة أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

والإمام العادل وصي اليتامى وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، والإمام العادل كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم فلا تكون يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله- عزّ وجلّ- كعبد إئتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدّد المال وشرّد العيال فأفقر أهله وفرّق ماله.

واعلم أن الله انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم. أذكر الموت وما بعده وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

وأعلم أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك يسلمونك في قعره وحيداً فريداً؛ فتزوّد له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. واذكر إذا بُعْثر ما في القبور، وحصّل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلية ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّة، فتبوء بأوزارك وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك.

٢- شريح القاضي

هو شريح بن الحارث الذي ولاه عمر بن الخطاب- ﷺ- القضاء لما عرف عنه من ذكاء فذ، وفطنة حادّة، وخُلُقْ رفيع، وتجربة طويلة في الحياة؛ فهو رجل يمني الأصل كندي العشيرة من أوائل المؤمنين بالله في اليمن ولكنّه لم يحظ بشرف صحبة رسول الله- ﷺ-. وقد قيل لشريح: بأي شيء أصبت هذا العلم؟ فقال: بمذاكرة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم.

قصته مع سيدنا عمر- ﷺ

ابتاع أمير الخطاب المؤمنين عمر بن الخطاب- ﷺ- فرساً من رجل من الأعراب ودفع له ثمنه ثم ركب على ظهر الفرس وذهب لكنه ما كاد يبتعد بالفرس طويلاً حتى ظهر فيه عطب أعاقه عن مواصلة الجري، فعاد سيدنا عمر إلى الأعرابي وقال له: خذ فرسك فإنه معطوب، فقال الرجل: لا آخذه- يا أمير المؤمنين- وقد بعته منك سليماً صحيحاً.

فقال عمر: أجعل بيني وبينك حكماً.

فقال الرجل: يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي.

فقال عمر: رضيت به.

احتكم أمير المؤمنين عمر وصاحب الفرس إلى شريح، فلما سمع شريح مقالة الأعرابي قال لسيدنا عمر- ﷺ-: هل أخذت الفرس سليماً؟ فقال عمر: نعم، فقال شريح: احتفظ بما اشتريت يا أمير المؤمنين، أو ردّه كما أخذت.

فنظر عمر إلى شريح معجباً وقال: وهل القضاء إلا هكذا، قول فصل، وحكم عدل.

سِر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها.

قصته مع سيدنا عليّ بن أبي طالب- ﷺ-

افتقد سيدنا عليّ- ﷺ- درعاً له كانت عزيزة عليه، ثم وجدها في يد رجل من أهل الذمّة يبيعها في سوق الكوفة. فلما رآها عرفها وقال: هذه درعي سقطت عن جمل لي في ليلة كذا... وفي مكان كذا.

فقال الذمي: بل هي درعي يا أمير المؤمنين وفي يدي.

قال عليّ: إنما هي درعي لم أبعها من احد ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك.

قال الذمي: بيني وبينك قاضي المسلمين.

فقال علي: أنصفت فهلمّ إليه.

ثم أنهما ذهبا إلى "شريح القاضي" فلما صارا عنده في مجلس القضاء.

قال شريح لعليّ: ما تقول يا أمير المؤمنين ؟

فقال: لقد وجدّت درعي هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت مني في ليلة كذا... وفي مكان كذا... وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة.

فقال شريح للذمي: ما تقول أنت أيها الرجل ؟

فقال: الدرع درعي وهي في يدي، ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب.

فالتفت شريح إلى علي وقال:

لا ريب عندي أنك صادقٌ فيما تقوله يا أمير المؤمنين، وأن الدرع درعك؛ ولكن لا بدّ من شاهدين على صحة ما ادعيت.

فقال عليٌّ: نعم، مولاي قَنْبَر وولدي الحسن يشهدان لي.

فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين.

فقال عليّ: يا سبحان الله!! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته!! أما سمعت أن رسول الله- ﷺ- قال: (الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة)؟.

فقال شريح: يا أمير المؤمنين غير أني لا أجيز شهادة الولد لوالده.

عند ذلك التفت إلى الذمي وقال: خذها، فليس عندي شاهد غيرها.

فقال الذمي: ولكني أشهد بأن الدرع لك يا أمير المؤمنين، ثم أردف قائلاً: أمير المؤمنين يقاضي أمام قاضيه!! وقاضيّه يقضي لي عليه؟!!.. أشهد أن الدين الذي يأمر بهذا لحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. اعلم أيها القاضي: إن الدرع درع أمير المؤمنين وأنني اتبعت الجيش وهو منطلق إلى صفّين فسقطت الدرع عن جمله والأورق فأخذتها.

فقال له علي- ﷺ- أما وإنك قد أسلمت فإني وهبتها لك. ووهبت لك معها هذا الفرس أيضا.

ولم يمض على هذا الحادث زمن حتى شوهد الرجل يقاتل الخوارج تحت راية عليّ في يوم "النهروان" ويمضي في القتال حي كتبت له الشهادة.

قصة شريح مع ابنه

روي أن ابن شريح قال لأبيه يوماً.

يا أبت إن بيني وبين قوم خصومة فانظر فيها فإن كان الحق لي قاضيتهم، وإن كان لهم صالحتهم، ثم قصّ عليه قصته.

فقال له: انطلق فقاضهم.

فمضى إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة فاستجابوا له.

ولما مثلوا بين يديّ شريح ؛ قضى لهم على ولده... فلما رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتني يا أبت... والله لو لم أستشرك من قبل ما لمتك.

فقال شريح: يا بنيّ، والله لأنت أحب إليّ من ملء الأرض ذهباً من أمثالهم، ولكن الله- عزّ وجلّ- أعزُّ عليّ منك. ولقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم فتصالحهم صلحاً يفوّت عليهم بعض حقّهم فقلت لك ما قلت.

وكان شريح يردّد شعاراً واحدا "غداً سيعلم الظالم من الخاسر، أن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النَّصَفة، وإني أحلف بالله بالله- عزّ وجلّ ما من أحد ترك شيئاً لله؛ ثم أحس بفقده.

قصة أخرى في حكمة شريح

روى أحدهم قال: سمعني شريح وأنا أشتكي بعض ما غمّني لصديق؛ فأخذني من يدي وانتحى بي جانباً وقال: يا بن أخي، إياك والشكوى لغير الله عزّ وجلّ، فأن من تشكو إليه لا يخلو أن يكون صديقاً أو عدواً.

فأما الصديق فتحزّنه. وأما العدو فيشمت بك. ثم قال: انظر إلى عيني هذه- وأشار إلى إحدي عينيه- فوالله ما أبصرت بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سنة... ولكن ما أخبرت أحدا بذلك إلا أنت هذه الساعة.

أما سمعت قول العبد الصالح [إنما أشكوا بثّي وحزني إلى الله][1] فاجعل الله- عزّ وجلّ- مشكاك ومحزنك عند كل نائبة تنو بك، فإنه أكرم مسؤول وأقرب مدعو.

٣- محمد بن سيرين

كان مجلس محمد بن سيرين مجلس خير وبر وموعظة، فإذا ذكر عنده رجل بسيئة بادر فذكره بأحسن ما يعلم من أمره.

سمع ابن سيرين رجلاً يسُبُ الحجّاج بن يوسف بعد وفاته؛ فأقبل عليه وقال: صه يا بن أخي.

فإن الحجاج مضى إلى ربه، وانك حتى تقدُم على الله- عزّ وجلّ- ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج. فلكل منكما يومئذ شأن يغنيه.

---

(١) يوسف الآية ٨٦.

وأعلم يا بنيّ أن الله- جلّ وعزّ- سوف يقتصُّ من الحجاج لمن ظلمهم كما سيقتص للحجاج ممن يظلمونه. فلا تشغلنّ نفسك بعد اليوم بسب أحد.

٤- من حكماء العرب: الأحنف بن قيس[(١)]

عُرف بالحكمة والحلم، وقد قيل عنه وكان زعيم قومه: إذا غضب الأحنف غضب له مائة ألف فارس لا يسألونه فيم غضب ؟!. وذلك لأنه لم يكن يغضب.

وقد سأله سيدنا معاوية- رضي الله عنه-: بم سدت قومك، وأنت لست بأسنهم، ولا أشرفهم ؟ قال: لا أتناول ما كفيت، ولا أضيع ما ولّيتُ.

وروى الحسن البصري أن الأحنف بن قيس قال: بينما أنا أطوف بالبيت زمن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال: ألا أبشرك ؟ فقلت: بلى، قال: هل تذكر أن بعثني رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى قومك بنى سعد، فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت: إنه يدعو إلى الجنة، ويأمر بالخير مرتّين، فبلغ ذلك النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: اللهم أغفر للأحنف. وكان الأحنف يقول: ما لي عمل أرجى لي منه".

عندما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد جاءت الوفود وتكلم المتكلمون، وكان منهم الأحنف ابن قيس والذي قال لمعاوية: يا أمير المؤمنين: أنت أعلم بيزيد بليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الأمة؛ فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت

---

(١) (ابن عبد ربه: العقد الفريد – ج٤ – ص٣٧٠).

تعلم منه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. فتفرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف.

ولم يكن بعض الناس يعرفون مكانة الأحنف ومقامه، فقد وفد عبيد الله بن زياد على معاوية ومعه أشراف أهل البصرة والعراق، فاستأذن لهم عبيد الله عليه على منازلهم منه، وكان آخر من أدخله على معاوية الأحنف بن قيس، ولم يكن عبيد الله يجلّه، فلما رأى معاوية الأحنف؛ رحبّ به وأكرمه وعظمه وأجلّه وأجلسه معه على السرير ورفع منزلته، ثم تكلم القوم فأثنوا على عبيد الله، والأحنف ساكت فقال له معاوية: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمت خالفت القوم. فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا والياً ترضونه.

فمكثوا أياماً يترددون إلى أشراف بني أمية يسألون كل واحد أن يتولى عليهم فلم يقبل أحد منهم ذلك، ثم جمعهم معاوية فقال: من اخترتم؟ فاختلفوا عليه والأحنف ساكت، فقال له معاوية: مالك لا تتكلم؟ فقال يا أمير المؤمنين، إن كنت تريد غير أهل بيتك فرأيك، فقال معاوية: أعدته إليكم.

وقال ابن جرير: قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن وليت عنا من أهل بيتك فإنا لا نعدل بعبيد الله بن زياد أحداً، وإن وليت علينا غيرهم فانظر لنا في ذلك فقال معاوية: قد أعدته إليكم. ثم إن معاوية أوصى عبيد الله بن زياد بالأحنف خيراً وقبّح رأيه فيه وفي مباعدته/ ثم قال له بينه وبينه: كيف جهلت مثل الأحنف ؟ إنه والله الذي عزلك وولاّك وهو ساكت فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عن ابن زياد.

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس فقال: يا ابا بحر ما تقول في الولد ؟ قال: ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم ارض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فاعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودّهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك.

فقال معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غيظاً على يزيد فسالته من قلبي، ثم بعث معاوية إلى يزيد مائتي ألف درهم فأرسل نصفها إلى الأحنف.

وتتجلى حكمة الأحنف فيما قال عن علاقته بمن أساء إليه أو عاداه يقول: ما عاداني أحدٌ قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه.

لذلك قيل عن الأحنف: إذا غضب غضب له مائة ألف فارس لا يسألونه فيم غضب[1].

٥- رجاء بن حيوة

قال عنه مسلمة بن عبد الملك: إن في كندة ثلاثة رجال ينزل الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، أحدهم رجاء بن حيوة.

ويقال: كان في قرن التابعين ثلاثة رجال ما عرف أهل زمانهم لهم مثيلا ولا رأوا لهم ضريبا، وقفوا حياتهم على العلم، وأنفسهم في خدمة الله ورسوله والمؤمنين جميعاً وهم:

---

(١) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ٣٧٠ والبداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٣٣٢.

محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بن أبي بكر بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام. وكان دستور ابن حيوة الذي التزم به في حياته قوله:

ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان...
وما أحسن الإيمان يزينه التقى...
وما أحسن التقى يزينه العلم...
وما أحسن العلم بزينه العمل...
وما أحسن العمل يزينه الرفق...

وكان اتصاله بخلفاء بني أمية وقد وزر لطائفة منهم بدءاً بعبد الملك بن مروان وانتهاء بعمر بن عبد العزيز. وكان اتصاله بهم من عظيم رحمة الله بهم وجزيل إكرامه لهم فقد دعاهم إلى الخير ودلهم على طرقه وثناهم عن الشر وأوصد دونهم أبوابه، وأراهم الحق وزيّن لهم اتبعاعه، وبصّرهم بالباطل وكرّهه إليهم. فنصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وله قصة أنارت له الطريق رواها قائلاً:

إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك في جموع من الناس إذا رأيت رجلاً يتجه نحوه وسط الزّحام، وكان حسن الصورة جليل الهيئة فما زال يشق الصفوف وأنا ما أشك في أنه يريد الخليفة حتى صار بقربي ووقف إلى جانبي وقال: يا رجاء، إنك قد ابتليت بهذا الرجل، وأشار إلى الخليفة وإنّ في القرب منه الخير الكثير أو الشر الكثير فاجعل قربك منه خيراً لك وللناس، واعلم- يا رجاء- أنه من كانت له منزلة من السلطان

فرفع إليه حاجة امرئ ضعيف لا يستطيع رفعها لقي الله- جلّ وعزّ- يوم يلقاه وقد ثبت قدميه للحساب.

واذكر يا رجاء أن من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته، واعلم- يا رجاء- أن من أحب الأعمال إلى الله- جلّ وعزّ- إدخال الفرح على قلب امرئ مسلم.

يقول رجاء بن حيوه: فيما كنت أتأمل كلامه وأترقب أنه ويزيدني منه نادى الخليفة قائلا: أين رجاء بن حيوة ؟ فانعطفت نحوه وقلت: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين، فسألني عن شيئ فما كدت أفرغ من جوابه حتى التفت إلى صاحبي فلم أجده، فنفضت المكان عنه نفضاً فلم أقع له على اثر بين الناس.

موقف من حِكْمَة لرجاء

وصف للخليفة عبد الملك بن مروان رجل بسوء طويته على بني أمية وقيل له: إنه يشايع ابن الزبير وينتصر له وذكر له الواشي من أفعاله وأقواله ما أثار غضبه وحفيظته، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلنّ ولأفعلنّ، ولأضعنّ السيف في عنقه.

ولم تمض مدة حتى أمكنه الله منه. بعد أن سيق الرجل إليه سوقاً فلما رآه كاد يتميّز غيظاً وهم أن ينّفذ وعيده، فقام إليه رجاء بن حيوة وقال: يا أمير المؤمنين، إن الله- جلّ وعزّ- قد صنع لك ما تحبه من القدرة... فاصنع لله ما يحبه من العفو.

فسكنت نفس الخليفة وسكت عنه غضبه، وعفا عن الرجل وأطلق سراحه وأحسن إليه، كل ذلك بفضل حكمة ابن حيوة.

ترشيحه للخليفة عمر بن عبد العزيز

لما كانت الخلافة عند سليمان بن عبد الملك كان لرجاء بن حيوة عنده شأن أعظم من عند سابقيه، فقد كان عظيم الثقة به، يعتمد عليه، ويحرص على أخذ رأيه في كل صغيرة وكبيرة، وأعظم مواقفه معه وأعظمها للمسلمين والإسلام موقفه من ولاية العهد بعده والبيعة لسيدنا عمر بن عبد العزيز.

يقول رجاء بن حيوة: عندما أثقل المرض على سليمان دخلت عليه ذات مرة فوجدته يكتب كتاباً: فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟.

فقال: اكتب كتاباً أعهد به إلى ابني أيّوب.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ مما يحفظ الخليفة في قبره، ويبرئ ذمته عن ربه أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. إن ابنك أيوب غلامٌ لم يبلغ الحلم بعد. ولم يتبين لك صلاحه من طلاحه. فتراجع وقال: إنه كتاب كتبته. وأنا أريد أن استخير الله فيه ولم أعزم عليه. ثم مزّق الكتاب. ومكث بعد ذلك يوماً أو يومين ثم دعاني وقال: ما رأيك في ولدي داود يا أبا المقدام؟.

فقلت: الرأي لك يا أمير المؤمنين. وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم لكي استبعدهم واحداً واحداً، حتى أصل إلى عمر بن عبد العزيز.

فقال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟

فقلت: ما علمته- والله- إلا فاضلاً كاملاً، عاقلاً، ديّناً.

فقال: صدقت إنه والله كذلك. ولكني إن وليّته وأغفلت أولاد عبد الملك، لتكوننّ فتنة ولا يتركونه يلي عليهم أبداً.

فقلت: أشرك معه واحداً منهم، واجعله بعده.

فقال: أصبت، فإن ذلك مما يسكنهم، ويجعلهم يرضون، ثم أخذ الكتاب وأخذ يكتب بيده:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين لعمر ابن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي وجعلتها من بعده ليزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تخالفوا فيطمع الطامعون فيكم.

ثم ختم الكتاب وناولني إياه، ولم أعلنها إلا بعد وفات أمير المؤمنين.

٦- عامر بن شرحبيل الشُعْبّي

قال عنه الحسن البصري: كان الشعبي واسع العلم، عظيم الحلم، وإنه من الإسلام بمكان.

ولد في الكوفة رحل إلى المدينة والتقى بخمسمائة من صحابة رسول الله- ﷺ- وروى عن عدد كبير منهم مثل عليّ بن أبي طالب- - وسعد بي أبي وقاص وأبي موسى الأشعري، وأبي سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو هريرة، وأم المؤمنين عائشة، وعدي بن حاتم... وغيرهم كثير.

وكان الشعبي حاد الذكاء، متوقد القريحة، يقظ الفؤاد، مرهف الذهن، دقيق الفهم، قوي الحافظة والذاكرة روى أنه قال: ما كتبت سوداء في بيضاء قط- ما سجلت كلاما في ورق- ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعت من امرئ كلاما ثم أحببت أن يعيده عليّ.

ويقول: أقل شيئ تعلمته الشعر، ولو شئت لأنشدتكم منه شهراً دون أن أعيد شيئاً مما أنشدت. وروى عن نفسه قال: أتاني رجلان يتفاخران، أحدهما من بني عامر والآخر من بنى أسد، وقد غلب العامري صاحبه وعلا عليه، وأخذ منه ثوبه وجعل يجره نحوي جراً، والأسدي مخذول أمامه يقول له: دعني.. دعني ، وهو يقول له: والله لا أدعك حتى يحكم "الشعبي" لي عليك، فالتفت إليّ العامري وقلت له:

دع صاحبك حتى أحكم بينكما، ثم نظرت إلى الأسدي وقلت له: مالى أراك تتخاذل له ؟ ولقد كانت لكم مفاخر ستة ولم تكن لأحد من العرب:

أولها: أنه كانت منكم امرأة خطبها سيّد الخلق محمد بن عبد الله فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات. وكان السفير بينهما جبريل – عليه السلام- وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش، فكانت هذه مأثرة لقومك ولم تكن لأحد من العرب غيركم.

والثانية: أنه كان منكم رجل من أهل الجنة يمشي على الأرض هو عكاشة بن محصن. وكانت هذه لكم يا بنى أسد ولم تكن لسواكم من الناس.

والثالثة: أن أول لواء عقد في الإسلام كان لرجل منكم هو عبد الله بن جحش.

والرابعة: أن أول مغنم قسم في الإسلام كان مغنمه.

والخامسة: أن أول من بايع بيعة الرضوان كان منكم، فقد جاء صاحبكم أبو سنان بن وهب إلى رسول الله- ﷺ- وقال: يا رسول الله: أبسط يدك أبايعك، قال: على ماذا؟، قال: على ما في نفسك، قال: وما في نفسي؟، قال: فتح أو شهادة.

قال: نعم، فبايعه فجعل الناس يبايعونه على بيعة سنان.

السادسة: أن قومك بني أسد كانوا سبع الهاجرين يوم بدر.

فبهت العامري وسكت.

والشعبي بذلك أراد أن ينصر الضعيف المغلوب على القوي الغالب، ولو كان العامري هو المخذول لذكر له من مآثر قومه ما لم يحط به خبراً.

الشعبي وعبد الملك وجستنيان

كان الشعبي من خاصة عبد الملك بن مروان يأخذ من علمه ويستشيره. أرسله مرة إلى "جستنيان" ملك الروم في مهمة، فلما وفد عليه أخذ بذكائه ودهش من دهائه، وأعجب بسعة علمه وقوة بيانه وسرعة بديهته، فاستبقاه عنده أياما على غير عادته مع السفراء، فلما ألحّ عليه بأن يأذن له بالعودة إلى دمشق سأله الملك الرومي؛ أمن أهل بيت الملك أنت ؟، فقال الشعبي: لا، وإنما أنا رجل من جملة المسلمين. فلما أذن له بالرحيل قال له: إذا رجعت إلى صاحبك عبد الملك وأبلغته جميع ما يريد معرفته فادفع إليه هذه الرقعة- الرسالة- فلما رجع إلى دمشق، بادر إلى

لقاء الخليفة عبد الملك بن مروان وأفضى إليه بكل ما رآه وسمعه، وأجابه عن جميع ما سأل عنه، ولما نهض لينصرف قال: يا أمير المؤمنين، إن ملك الروم حمّلني لك هذه الرقعة، ودفعها إليه وانصرف.

فلما قرأها عبد الملك قال لغلمانه: ردّوه عليّ فردوه فقال له: أعلمت ما في هذه الرقعة؟.

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: لقد كتب إليّ ملك الروم يقول: عجبت للعرب كيف ملّكت عليها رجلاً غير هذا الفتى؟.

فبادره الشعبي بحكمته ورجاحة عقله قائلا: إنما قال هذا لأنه لم يرك، ولو رآك يا أمير المؤمنين لما قاله.

فقال عبد الملك: أفتدري لم كتب إليّ الملك بهذا ؟ فقال تأدباً: لا يا أمير المؤمنين- وهو يعلم ما يريد الملك-.

فقال عبد الملك: بحكمته ورجاحة عقله أيضاً: إنما كتب إليّ ذلك لأنه يحسدني عليك فأراد أ، يغريني بقتلك والتخلص منك، فبلغ ذلك ملك الروم فقال: لله أبوه.. والله ما أردت غير ذلك.

بلغ الشعبي منزلة جعلته رابع ثلاثة في عصره، فقد كان الزهري يقول: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب في المدينة، وعامر الشعبي في الكوفة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول في الشام، ولكن الشعبي كان لتواضعه يخجل أن يقال له عالم، ومن حكمته أنّ رجلا خاطبه: أجبني أيها الفقيه العالم، فقال: ويحك لا تطرنا بما ليس فينا، الفقيه من تورع عن محارم الله، والعالم من خشي الله، وأين نحن من ذلك؟

وسأله آخر عن مسألة فأجاب: قال فيها عمر بن الخطاب كذا وكذا... وقال فيها علي ابن أبي طالب كذا وكذا... فقال له السائل: وأنت ماذا تقول يا أبا عمرو فابتسم في استحياء وقال: وما تصنع بقولي بعد أن سمعت مقالة عمر وعليّ.

٧- وصية أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

روى الإمام الدارمي عن الضحاك بن موسى أنه قال: مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أيّاماً فقال: هل بالمدينة احد أدرك أحداً من أصحاب النبي- ﷺ-؟، فقالوا له: أبو حازم[١]، فأرسل إليه، فلمّا دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، وأي جفاء رأيت من ؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني، قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك، قال: فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الدين الزهري، فقال: أصاب الشيخ وأخطأت، قال سليمان: يا أبا حازم مالنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم الآخرة وعمّرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسئ فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان، وقال: ليت شعري مالنا عند الله ؟ قال أعرض عملك على كتاب الله،قال: أي مكان أجده. قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ فقال سليمان فأين رحمة الله يا أبا

---

(١) (أبو حازم هو سلمة بن دينار المدن الأعرج والزاهد والفقيه، قيل أنه لم يكن في زمنه مثله).

حازم؟ قالِ أبو حازم: رحمة الله قريب من المحسنين، وقال له سليمان: يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم ؟ قال: أولو المودة والنهى، قال له سليمان: فأي الأعمال أفضل؟ قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال سليمان: فأي الدعاء أسمع ؟، قال أبو حازم: دعاء المُحْسَنِ إليه إلى المُحْسِنِ، قال: فأي الصدقة أفضل ؟ قال: للسائل البائس وجهد المقل، وليس فيها منّ ولا أذى، قال: فأي القول أعدل ؟ قول الحق عند من تخافه وترجوه، قال: فأي المؤمنين أكيَسُ ؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودَلّ الناس عليها، قال: فأي المؤمنين أحمق ؟ قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: أصبت، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين أوَ تعفني، قال له سليمان: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليّ، قال: يا أمير المؤمنين إنّ آباءك قهروا الناس بالسيّف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها، فلو شعرت ما قالوه وما قيل فيهم، فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيّنه للناس ولا يكتمونه، قال له سليمان فكيف لنا أن نصلح؟ قال: تدعون الصلف (الصلف: الكبر والعجب) وتمسكون بالمروءة وتقَسِّمون بالسويّة قال سليمان: كيف لنا بالمأخذ به؟ قال أبو حازم: تأخذه من حله وتضعه في أهله، قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا، فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله، قال له سليمان: ولم ذاك؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، قال له سليمان: ارفع لنا حوائجك، قال:

تنجيني من النّار وتدخلني إلى الجنة؟ قال سليمان: ليس ذلك إليّ، قال أبو حازم: فمالي إليك حاجة غيرها. قال فادع لي، قال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيريّ الدنيا والآخرة وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى، قال له سليمان: عظني، قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله وإن لم تكن من أهله فما ينفعني أن أرمي عن قوس ليس لها وتر. قال له سليمان: أوصني، قال: سأوصيك وأوجز: عظّم ربّك، ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك.

فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير، فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إيايّ هزلاً، أو ردّي عليك بذلاً (بذلا: ممتهناً) وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي ؟ وكتب إليه:

إن موسى بن عمران : لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء (رعاء: رعاة) يسقون ووجد من دونهم جاريتين تذودان (تذودان: تدفعان وتردان ولا أحد يسقي لهما) فسألهما، فقالتا: (لا نسقي حتى يصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال: ربِّ إنِّ لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقير) وذلك أنه كان جائعاً خائفاً، لا يأمن فسأل ربَّه ولم يسأل النّاس، فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان، فلما رجعا إلى ابيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله، فقال أبوهما وهو شعيب هذا رجلٌ جائع، فقال لاحداهما: اذهبي فادعيه فلما أتته عظّمته وغطت وجهها وقالت: (إن أبي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا) فشقّ على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا ولم يجد بدّاً من أن يتبعها إنّه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق(تصفق: تضرب)

على ظهرها، وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى فلما عيل (قلّ ونفد) صبره ناداها: يا امة الله كوني خلفي وأريني السّمت بقولك ذا. فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيأ فقال له شعيب اجلس يا شاب فتعش فقال له موسى أعوذ بالله. فقال له شعيب: لِمَ؟ أما أنت جائع؟ قال: بلى ولكني أخاف أن يكون عوضاً لما سقيت لهما، أنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً فقال له شعيب: لا يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي نُقْري (نكرم) الضيف ونطعم الطعام، فجلس موسى فأكل ؛ فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثتُ ؛ فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ من هذه، فإن كان الحق في بيت المال فلي فيها نُظراء، فإن سويت بيننا، وإلا فليس لي فيها حاجة[1].

٨- الإمام محمد بن شهاب الزُّهري[2] والوليد بن عبد الملك

قال صاحب العقد الفريد: دخل الزُّهري على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدّثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيئات! قال الزُّهري: باطل، يا أمير المؤمنين! أنبي خليفة أكرم على الله، أم خليفة غير نبيّ؟ قال: بل نبي خليفة، قال: فإن الله تعالى يقوله لنبيِّه داود ﷺ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ

---

(1) (رواه الدارمي في سننه – ج١ – ص ١٢٥-١٢٦ – حديث رقم ٦٥٣ في كتاب العلم).

(2) (هو محمد بن شهاب الدين القرشي، التّابعي، ولد سنة ٥١هـ).

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1] فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة فما ظنك بخليفة غير نبيّ ؟ قال الوليد: إن الناس ليغروننا عن ديننا[2].

الزُّهري وهشام بن عبد الملك:

روى ابن عساكر في تاريخه بسنده إلى الإمام الشافعي رحمه الله أن هشام بن عبد الملك سأل سليمان بن يسار عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]،فقال هشام: من الذي تولّى كبره منهم؟ قال سليمان: هو عبد الله ابن أبي ابن سلول، فقال هشام: كذبت! إنما هو علي بن أبي طالب- ويظهر أن هشام لم يكن جادّاً فيما يقول وإنما أراد أن يختبر شدّتهم في الحق- فقال سليمان بن يسار: أمير المؤمنين اعلم بما يقول، ثم وصل ابن شهاب، فقال له هشام: من الذي تولّى كِبره منهم؟ فقال الزّهري: هو عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: هشام: كذبت إنما هو علي بن أبي طالب، قال الزّهري، وقد امتلأ غضباً: أنا أكذب؟ لا أبا لك! فوالله لو ناداني مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني فلان وفلان أن الذي تولّى كبره منهم: هو عبد الله بن أبي بن سلول، قال الشافعي فما زالوا يغرون به هشاماً حتى قال: فوالله ما كان ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك، قال ابن شهاب: ولم

---

(١) (ص: ٢٦).

(٢) (العقد الفريد لابن عبد ربه ج١/ ٦٠).

(٣) (النور: ١١).

ذاك؟ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت اغتصبتني على نفسي؟ فخلّ عنّي. قال له: لا، ولكنك استدنت ألفي ألف، فقال الزهري: قد علمت وأبوك قبلك أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك. ثم خرج مُغضَباً، ثم قال هشام: إنا نهيّج الشيخ. ثم أمر فقضى عنه من دينه ألف ألف فاخبر بذلك فقال: الحمد لله هذا هو من عنده[1].

٩- وصية محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز ﷺ

قال محمد بن كعب القرظي يعظ عمر بن عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ضرّهم، ومنها خرجوا بما نفعهم. وكم من قوم غرّهم منها مثل الذي أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة ولا لما كرهوا جنة. وقسم ما جعلوا مَنْ لم يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم محقوقون، يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وننظر إلى الأعمال التي نتخوف عليهم منها فنكف عنها. فاق الله يا أمير المؤمنين واجعل في قلبك سبيل أثنين، وانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك- عزّ وجلّ- فابتغ به البدل حيث لا نؤخذ البدل ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجوا أن تحوز عنك. فاتّق الله يا أمير المؤمنين وافتح الأبواب وسهِّل الحجاب وانصر المظلوم وردّ الظلم. ثلاث من كن فيه

(1) (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للمرحوم مصطفى السباعي – ص ٢١٤-٢١٥).

استكمل الإيمان بالله عزّ وجل: من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وغدا قدر لم يتناول ما ليس له)[1].

١٠- حُطَيْطُ الزيّات والحجّاج بن يوسف

جيء بالعالم حطيط الزيات إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم. قال حطيط: سل ما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام (مقام سيدنا إبراهيم عند الكعبة) على ثلاث خصال: إن سُئلت لأصدقنّ، وإن ابتليت لأصبرنّ، وإن عوفيت لأشكرنّ.

قال الحجاج فما تقول فيّ؟: أقول فيك إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظِنّة، قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول إنه أعظم جرماً منك، وإنما أنت خطيئة من أخطائه، فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوا يمدون- يستلون- قصبة قصبة، حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئاً فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق، فقال أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر- وهو الراوي- فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟ شربة ماء فأتوه بشربة ثم استشهد وكان عمره ثمانية عشرة سنة -رحمه الله-.

---

(١) (سيرة عمر بن عبد غلزيز لابن الجوزي- ص ١١١).

بين أسماء والحجاج

عن أبي صديق الناجي قال: لما ظفر الحجاج بابن الزبير فقتله ومثّل به، ثم دخل على أم عبد الله وهي أسماء بنت أبي بكر- ﷺ- فقالت: كيف تستأذن عليّ وقد قتلت ابني؟ فقال: إن ابنك ألحد في حرم الله،فقتلته ملحداً عاصياً، حتى أذاقه عذاباً أليماً، فعل به وفعل، فقالت: كذبت يا عدو الله وعدو المسلمين،والله لقد قتلت صواماً قوّاماً براً بوالديه حافظاً لهذا الدين، ولئن أفسدت عليه دنياه لقد افسد عليك آخرتك، ولقد حدثنا رسول الله- ﷺ- (إنّه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما أشرُّ من الأوّل وهو المبير) وما هو إلاّ أنت يا حجاج[1]، وقيل إن الحجاج قال لها: صدق رسول الله وصدقت أنا المبير.

طاووس وهشام بن عبد الملك

قدم هشام بن عبد الملك حاجاً إلى مكة فلما دخلها، قال: ائتوني برجل من الصحابة، قيل له: يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: من التابعين فأتى بطاووس اليماني العالم الجليل رحمه الله. فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بأمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك يا هشام،ولم يكنّه، وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام، فغضب هشام غضباً شديداً، حتى همَّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك.

---

[1] (رواه احمد وأبو يعلى وهذا لفظ مسلم بشرح النووي ج١٦/ ١٠٠-١٠١).

فقال: يا طاووس مالذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً. قال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبّل يدي، ولم تسلم بأمرة المؤمنين ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت كيف أنت يا هشام.

فقال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني اخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني، ولا يغب عليّ، وأما قولك لم تُقبّل يدّي، فأني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلاّ امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة، وأما قولك لم تسلم بإمرة المسلمين، فليس كل الناس راضين بإمارتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك لم تكنني فإن الله سمي أنبياءه فقال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب، وأما قولك جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علياً- ﷺ- يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال هشام: عظني، قال: سمعت من أمير المؤمنين على ﷺ يقول: إن في جهنم حيات كالقلال (القلال: رؤوس الجبال). وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وهرب[1].

عليّ زين العابدين وهشام بن عبد الملك وما قاله الفرزدق في ذلك

كان هشام بن عبد الملك حجّ في زمن أبيه وأخيه الوليد فطاف بالبيت، وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه، فلم يقدر عليه، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه أهل الشام؛ إذ أقبل عليّ بن

---

(1) (الإسلام بين العلماء والحكام- ص ١١٧).

الحسين بن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهم- وهو من أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً فلما بلغ إلى الحجر تنحّى له الناس حتى يستلمه، فقال رجل من أهل الشام: مَنْ هذا؟ فقال هشام: لا أعرف. مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ** والبيت يعرفه والحلُّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم ** هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ** بجدّه أنبياء الله قد خُتموا
إذا رأته قريش قال قائلها: ** إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
إن عُدّ أهل التقي كانوا أئمتهم ** أو قيل مَنْ خيرُ أهل الأرض قيل هُمُ
ينمى إلى ذروة العزّ التي قصرت ** عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ** ركن الحلطيم إذا ماجاء يستلم
يُغضي حياءً ويُغضي من مهابته ** فما يكلّم إلاّ حين يبتسم
مَنْ جَدُّهُ دان فضلُ الأنبياء له ** وفضل أمّته دانت له الأمم
ينشق نور الهدى عن نور غُرّته ** كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
مشتقة من رسول الله نبعته ** طابت عناصيره والخِيم والشِّيَمُ
الله شرّفه قِدماً وكرّمه ** جرى بذاك له في لوحِهِ القلمُ
فليس قولك من هذا؟ بضائره ** العُرْبُ تعرف مَنْ أنكرتَ والعجم
كلتا يديه غياث عمّ نفعهما ** تستوكفان ولا يعروهما العدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ** يزينه اثنان: حسن الخلق والكرم
حمّال أثقال أقوام إذا فُدِحوا ** حلوا الشمائل يحلو عنده نعم
ما قال لا قط إلاّ في تشهده ** لولا التشهد كانت لاؤه نعم

(ديوان الفرزدق)

عمرو بن عبيد وأبي جعفر المنصور وابنه المهدي

روى الحافظ بن كثير بسنده في تاريخه قال: "دخل عمرو بن عبيد على المنصور فأكرمه وعظمه وقربه وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عظني، فقرأ عليه سورة الفجر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ فبكى المنصور بكاءً شديداً، حتى كأنه لم يسمع بهذه الآية قبل ذلك، ثم قال له: زدني فقال: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك،ثم هو صائر لمن بعدك، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة فبكى المنصور أشدّ من بكائه الأول حتى اختلفت أجفانه. فقال له سليمان بن مجاهد رفقاً بأمير المؤمنين، فقال عمرو: وماذا على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله عزّ وجلّ؟ ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم، فقال: لا حاجة لي فيها، فقال المنصور: والله لتأخذنها. فقال: والله لا آخذها. فقال له المهدي، وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه: أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو بن عبيد إلى المنصور وقال: مَنْ هذا ؟ فقال المنصور: هذا ابني محمد، ولي عهد من بعدي، فقال عمرو: إنك سميته اسماً لا يستحقه، لعمله، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار، ولقد مهدت له أمراً، أمتع ما يكون به وأشغل ما يكون عنه. ثم التفت إلى المهدي فقال: يا ابن أخي: حلف أبوك وحلف عمُّ فلئن يحنث أبوك أيسر من أن يحنث عمك، ولأن أباك أقدر على الكفارة من عمّك،ثم قال له المنصور، يا أبا عثمان هل من حاجة؟ قال: نعم! قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إليّ حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك، فقال المنصور: إذاً والله لا نلتقي. فقال عمرو: عن حاجتي سألتني، فودّعه وانصرف فلمّا ولّى أمدّه المنصور ببصره وهو يقول:

كلكم يمشي رويد.

كلكم يطلب صيد.

غير عمرو بن عبيد[1].

من وصية أبي يوسف إلى هارون الرشيد

طلب هارون الرشيد من أبي يوسف[2] أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والصدقات ونحوها ليرفع به الظلم عن الرّعية فكتب إليه أبو يوسف يوصيه في مقدمة هذا الكتاب. فقال:

إن الله يا أمير المؤمنين- وله الحمد- قد قلّدك أمرا عظيماً، ثوابه أعظم الثّواب، وعقابه أشدّ العقاب، قلدك أمرا هذه الأمة، فأصبحت وأمست وأنت تبنى لخلق كثير، وقد استرعاك الله، وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم، وولاّك أمرهم وليس يثبت البنيان- إذا أسس على غير التقوى- أن يأتيه الله من القواعد فيهده على من بناه، وأعان عليه، فلا تضيعن ما قلّدك الله من أمر هذه الرّعية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، فإنّك إذا فعلت ذلك أضعت، وإن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعلم، فأنه لا علم بعد الأجل.

وإن الرعاة موؤدون إلى ربهم ما يودّي الراعي إلى ربه؛ فأقم الحق فيما ولاّك الله، وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزغ رعيتك وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب.

---

(1) (البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج ١٠- ص ١٢٤).

(2) (هـو يعقـوب بـن ابـرايهم بـن حبيب القاضي) ولد بالكوفة سنة ١١٣هـ وتوفي سنة ١٨٢ ببغداد وكان بمثابة (قاضي قضاة الدولة العباسية).

وإذا نظرت إلى أمرين: أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخر ة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر. واجعل الناس في أمر الله عندك سواء، القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم،واحذر فأن الحذر بالقلب، وليس باللسان، واتق الله فإن التقوى بالتّوقّي، ومن يتق الله يقه الله.

واعمل لأجل مقبوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود، فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم، والذي تطير منه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، لعزة ملك، قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافونه عقوبته، وكأن ذلك قد كان فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ليوم تزل فيه الأقدام وتتغير فيه الألوام، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب، يقول الله تعالى في كتابه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] وقال تعالى ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] وقال عزّ وجلّ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[4] وقال ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[5] فيا لها من عثرة لا

---

(١) (الحج: ٤٧).

(٢) (الدخان: ٤٠).

(٣) (المرسلات: ٣٨).

(٤) (الأحقاف: ٣٥).

(٥) (النازعات: ٤٦).

تقال أو يا لها من ندامة لا تنفع ! إنما هو اختلاف الليل والنهار، يلبيان كل جديد ويقربان كل بعيد، يأتيان بكل موعود، ويجزي الله كل نفسٍ بما كسبت إن الله سريع الحساب.

فالله الله! فإن البقاء قليل والخطر عظيم، والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلا تلقين الله عزّ وجلّ غداً وأنت سالك فيها سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنزله، وقد حذرك فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى، وإن الله سائلك عما أنت فيه ما عملت به فانظر ما الجواب؟

واعلم أنه لن تزول غداً قدم عبد بين يدي الله – عزّ وجلّ – إلاّ من بعد المسألة، فقد قال رسول الله- ﷺ- (لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه. وعن ماله من أين اكتسبه. وفيم أنفقه. وعن جسده فيم أبلاه؟[1]).

فأعد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت وأتيت فهو عليك غداً يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.

وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظ الله، ورعاية ما استرعاك، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتتعمى في عينيك رسومه،وتضيق عليك رحابه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج (الفلج: الفلاح والفوز) لها لا عليها، فإن الراعي والمضيع

---

(1) (أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح رقم ٢٤١٩) .

يضمن ماهلك على يديه مما لو شاء ردّه عن أماكن الهلكة بإذن الله. وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك إضاعه، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع، وبه أضر، وإذا صلح كان أسعد من هنالك بذلك، ووفاه الله أضعاف ما وفي له فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك، ويضيعك بما ضيعت أجرك، وإنا يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من علمك ما علمت.

نصيحة سفيان الثورة للخليفة العباسي هارون الرشيد

لما ولي الرشيد الخلافة جاءه أعيان الناس مهنئين إلا سفيان فكتب إليه معاتباً: من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري:

أما بعد يا أخي، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أصرم فيها حبلك، ولم أقطع منها ودّك، وإني منطو لك على أفضل المحبة، وأتم الغرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدني الله تعالى لأتيتك ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المحبة، وإنه لم يبق أحد من إخواني إلا زارني وهنأني بما صرت إليه.

وقد فتحت بيوت الأموال، وأعطيتهم من المواهب السنية، ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وقد استبطأتك وقد كتبت كتاباً مني إليك أعلمك بالشوق الشديد.

وقد علمت يا أبا عبد الله ماجاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته؛ فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعَجَلْ العَجَلْ.

ثم أعطى الكتاب لعبّاد الطالقاني وأمره بإيصاله إليه، وأن يحصى عليه بسمعه وقلبه دقيق أمره به وجليلة ليخبره به. قال عبّاد: فانطلقت إلى الكوفة فوجدت سفيان في مسجده، فلما رآني على بعد قام وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك الله من طارق يطرق إلا بخير.

قال: فنزلت عن فرسي بباب المسجد، فقام يصلى ولم يكن وقت صلاة. فدخلت وسلمت فما رفع أحد جلسائه رأسه إلى، قال: فبقيت واقفاً وما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة، فرميت بالكتاب إليه فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حيّة عرضت عليه في محرابه فركع وسجد وسلّم وأدخل يده في كمّه وأخذه وقلبه بيده، ورماه إلى من كان خلفه، وقال: ليقرأه بعضكم فإني استغفر الله أن أمس شيئاً مسّه ظالم بيده.

قال عبّاد: فمد بعضهم يده إليه وهو يرتعد كأنه حيّة تنهشه ثم قرأه فجعل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته، قال: اقلبوه واكتبوا للظالم على ظهره، فقيل له: ياأبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت عليه في بياض نقي لكان أحسن.

فقال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزي به وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شئ مسّه ظالم بيده عندنا، فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب إليه.

قال: اكتبوا له:

بسم الله ارحمن الرحيم

من العبد الميّت سفيان إلى العبد المغرور بالآمال هارون الذي سُلب حلاوة الإيمان، ولذة قراءة القرآن.

أما بعد: فإني كتبت إليك أعلمك أنى قد صرمت حبلك، وطعت ودّك، وأنك قد جعلتني شاهداً بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه، وانفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلت وأنت باءٍ عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك.

فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخوانك الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل. يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم.

هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟.

فشد يا هارون مئزرك، وأعدّ للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا، وأعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فاتق الله في نفسك إذا سلبت حلاوة العلم والزهد ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

يا هارون، قعدت على سرير ولبست الحرير وأسدلت ستوراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعدت أجنادك دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون،ويشربون الخمر ويحدّون الشارب، ويزنون ويحدّون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، ويقتلون ويحدّون القاتل؛ أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس.

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله: أحشروا الظلمة وأعوانهم، فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك والظالمون حولك وأنت لهم إماماً أو سائق إلى النار.

وكأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة.

فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً- ﷺ- في أمته، واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد؛ فمنهم من تزوّد زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإيّاك ثم ايّاك أن تكتب إليّ بعد هذا، فإني لا أجيبك والسّلام.

وصية الإمام الأوزاعي لأبي جعفر المنصور

قال الأوزاعي "بعث إليّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فأتيته، فلما وصلت إليه سلمت عليه بالخلافة، فرد عليّ واستجلسني ثم قال لي: مالذي أبطأ بك عنا يا أوزاعيّ؟، قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، قلت: انظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وفيه وجهت إليك، وأقدمتك له، قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به. قال الأوزاعي: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور، وقال هذا مجلس مثوبة وليس مجلس عقوبة فطابت نفسي

وانبسطت في الكلام فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله- ﷺ- (أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه).

يا أمير المؤمنين: من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم، لقرابتكم من رسول الله- ﷺ- وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً، مواسيا لهم بنفسه من ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس، فحقيق بك أن تقوم له بالحق، وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً، ولعوراتهم ساتراً، لا تغلق عليك دونهم الأبواب، ولا تقيم دونهم الحجاب، وتبتهج بالنعمة عنده وتبئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين: قد كنت في شغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم. وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين حدثني محكول عن عروة بن رويم قال: كانت في يد رسول الله- ﷺ- جريدة يستاك ويروع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال له.. يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً فكيف؛ فكيف بمن شقق استارهم وسفك دماءهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه.

يا أمير المؤمنين: إن المُلْك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبق لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺقال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟!.

يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباس النبي- ﷺ- إمارة مكة أو الطائف أو اليمن، فقال النبي عليه السلام: (يا عباس يا عم النبي: نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها) نصيحة منه لعمه وشفقة عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه (وأنذر عشيرتك الأقربين)، فقال يا عباس ويا صفية عَمَّيْ النبي ويا فاطمة بنت محمد إني لست أغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم).

وقد قال عمر ابن الخطاب- ﷺ- الأمراء أربعة: فأمير قوي ظلف (ظلف: منع نفسه عن هواها) نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله- ﷺ- (بشر الرعاة الحطمة) الحطمة: اسم من أسماء النار لأنها تحطم ما يلقى فيها فهو الهالك وحده. وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله ووضعه، فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك[١].

---

(١) (أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ج٧ ص ٧٧).

القاضي أبي بكر الباقلاني مع ملك الروم[1]

قال ابن كثير في ترجمته: "ذكر الخطيب عنه أن عضد الدّولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم، فلما انتهى إليه، إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الرّاكع. ففهم الباقلاني أن مرادهم أي نحنى الداخل عليه كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار استه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقرى فلما وصل عليه أتقتل فسلّم عليه، فعرف الملك ذكاءه ومكانه من العلم والفهم، فعظمه، ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة "بالارغل"؛ ليستفذ عقله بها، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن تظهر منه حركة ناقصة، بحضرة الملك، فجعل لا يألوا جهداً أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شئ من النقص والخفة فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك استكشف الأمر فإذا هو قد جرح نفسه بما اشغله عن الطرب، فتحقق الملك وفورهمته وعلى عزيمته، فإن هذه الآلة لا يسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى.

وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رُميت به من الإفك؟ فقال الباقلاني مجيباً له على البديهة: هما أمرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج- يعنى أن عائشة أولى بالبراءة من مريم- وكلاهما بريئة مما قيل فيها، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحي الله -عز وجل- عليهما السلام.

---

[1] (هو محمد بن الطيب أبوبكر الباقيلاني المالكي المتوفى سنة ٤٠٣هـ).

الفصل السّادس

مشروعيّة الحوار

أ- مشروعيّة الحوار في الكتاب الكريم.

ب- مشروعيَة الحوار في السّنة النّبوية.

مدخل لتحديد المفاهيم

الجدال والمراء والحوار

١- الجدال وأنواعه.

٢- المراء.

٣- الحوار بالحكمة ومدلوله.

١- الجــدال

جـاءت كلمة الجدال في تسعة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم في دلالات يغلـب علـيها اللـد والخصومة، والتعنت والعناد، وما لا طال تحـت زيادة على التعصب للرأي والتمسك به، فالجدال حوار بين طرفين أو أطـراف إلا أن الحوار أقل في مجال الخصومة والتنازع الذي لا يخلو منه حوار أيضاً، وللعلماء في الجدال أقوال كثيرة تدعو إلى التحذير والبعد عنه مـا أمكن، لأنه قد يتحول إلى مراء وخصومة، ولارتباط الجدل بالتعصب للـباطل والخـصومة والفرقة، وإنكار الحق عناداً وتكبراً حذّر الرسول ﷺ منه قائلاً: (ما ضَلَّ قومٌ بعد هدىً أتاهم، إلاَّ أُوتوا الجدل)[١].

وقد عرَّف الخطيب البغدادي الجدل بقوله: [وأما الجدل فهو تردد الكلام بين الخصمين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صـاحبه وهـو مأخوذ من الأحكام، يقال: (دِرعٌ مجدولة الفتل)، والجدالة: وجه الأرض إذا كان صلباً ولا يصح الجدل إلا من اثنين ويصح النظر في واحد][٢]. وروى الأوزاعي عن حسَّان بن عطية قوله: [إذا أرادَ اللهُ بقومٍ شَراً ألقى بينهم الجَدلَ وخزي العِلم][٣].

وعن قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٤]، يقول البغدادي: [فأمر الله رسوله في

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي.

(٢) الخطـيب الـبغدادي الفقـيه والمـتفقه، ص ٥٥١، ط أولى ١٤١٧- ١٩٩٦ دار ابـن الجـوزي السعودية.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٥٤.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٥.

هـذه الآيـة بالجـدال، وعلّمـه فـيها جميع آدابه من الرفق والبيان، والتزام الحـق، والـرجوع إلى مـا أوجبـته الحجـة، قـال تعـالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1]، وقـوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾[2]، وقـوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]، وكـتاب الله تعـالى لا يتعارض ولا يختلف، وتضمَّن الكتاب ذم الجدال والأمر به، فعلمنا علماً يقيناً أن الذي ذمَّه غير الذي أمر به، وأن من الجدال ما هو محمود مأمور به، ومنه ما هو مذموم منهي عنه، فطلبنا البيان لكل واحد من الأمرين فوجدناه تعالى قد قـال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾[4]، وقـوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[5]، فبيَّن الله في هاتين الآيتين الجدال المذموم وأعلمنا أنه الجدال بغير حجة والجدال الباطل.

فالجدال المذموم وجهان:

أحدهما:- الجدال بغير علم.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

(2) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

(3) سورة النحل: الآية ١٢٣.

(4) سورة غافر: الآية ٥.

(5) سورة غافر: الآية ٣٥.

والثاني:- الجدال بالشغْب والتمويه نصرةً للباطل بعد ظهور الحق وبيانه: قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1].

وأما جدال المحقين فمن النصيحة في الدين ألا ترى إلى قوم نوح عليه السلام حين قالوا: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ وجوابه لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[2]، وعلى هذا جرت سنن رسول الله ﷺ[3].

ومما سبق يتضح أن الجدال المحمود يكون:

١- إذا كان دعوة إلى الله والتزاماً بآداب الجدل.

٢- إذا كان في مجال النصيحة في الدين.

٣- إذا كان طلباً للحق ونصرة له وإظهاراً للباطل ومفاسده.

أما الجدال المذموم فيكون في الحالات الآتية:

١- إذا كان للمماراة وطلب الجاه والرفعة، قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة غافر: الآية ٥.

(٢) سورة هود: الآية ٣٢ و ٣٤.

(٣) الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه، ص ٥٥٦- ٥٥٧.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٨.

٢- الاستكبار والعلو بغير دليل أو سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[1].

٣- إذا كان مفتقداً للعلم والبيِّنة والدليل بقصد التضليل عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[2].

٤- إذا كان جدالاً لدفع الحق، قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾[3].

٥- إذا كان دفاعاً عن الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾[4].

٦- إذا كان جدالاً بالهوى ولمجرد التطاول والتبجّح وبلا علم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾[5]، وعن هذه الآية يقول الشهيد سيد قطب- رحمه الله-: [والجدال في الله سواء في وجوده سبحانه، أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة من صفاته... الجدال في شيء من

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٨.

(٣) سورة غافر: الآية ٥.

(٤) سورة النساء: الآية ١٠٧.

(٥) سورة الحج: الآية ٣.

هـذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضـاه... ذلـك الجـدال يبدو عجياً من ذي عقل وقلـب لا يتقـي شر ذلك الهول المزلزل المجتاح، ويا ليته كان جدالاً عن علم ومعرفة ويقين ولكنه جدال بغير علم جدال التطاول المجرد مـن الدلـيل، جـدال الـضلال الناشـىء عـن إتـباع الـشيطان فهذا الـصنف مـن الـناس يجـادل في الله بالهـوى ويتبع كل شيطان مريد عاتٍ مخالف للحق متبجح][1].

فالجـدال المحمـود هـو الـذي يهدف لطلب الحق ونصرته وكشف الـباطل وزيفـه وفـساده، ولم يُنكـر الصحابة الجدال في طلب الحق عندما تحاجَّ المهاجرون والأنصار بعد وفاة رسول الله ﷺ كما أن ابن عباس حَاجَّ الخوارج عندما طلب منه سيدنا علي ذلك.

ولعـل هذا الجدال المحمود هو الذي قصده أرسطو حينما نظر إلى الحـوار باعتـباره جـزءاً مـن المـنطق وأطلق عليه اسم الجدل الذي أصبح وسيلة من وسائل التمييز بين الحق والباطل.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٥٧٩.

٢- المــراء

جاءت هذه اللفظة ثماني عشرة مرة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة وهو نوع من الجدال المذموم لأنه بمعنى الجحود، قال تعالى: ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[(١)]، وبمعنى الشك والافتراء والجدال المذموم لأنها لم تأتِ بمعنى الجدال المحمود بل جاءت قريباً من ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[(٢)]، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي: [ولم يُبحْ له أن يماري ولكن قوله (إلا مراء) استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب سميت مراجعته لهم مراء، ثم قُيِّد بأنه ظاهر ففارق المراء الحقيقي المذموم][(٣)].

وفي هـذا المعنـى حـديث رسول الله ﷺ: (أنا زعيم بيت في ربض الجـنَّة لمـن تـرك المـراء وإن كـان مُحِقـاً، وببـيت في وسط الجَنَّة لَمن ترك الكذب وإن كان مَازحاً، وببيت في أعلى الجَنَّة لمن حسُن خُلُقهُ)[(٤)].

فالمـراء والمحاجـة والجـدال قـيدت بـالتي هي أحسن لأن فيهما ما يكـون مذمـوماً وإن كـان المـراء أكثـر معنـى في الـذم، وإن إطـلاق هـذه الكلمـات تـصرف الذهن إلى معنى الذم فلذلك جاءت مقيدة في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) سورة النجم: الآية ١٢.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٢.

(٣) القـرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٥٠، ط ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) الترمذي وابن ماجة، ٧/ ٥٨.

﴿أَحْسَنُ﴾[١]، والمراء جدل هدفه إظهار فضل المحاور على صاحبه وليس هدفه إظهار الحق فهو نوع من المكابرة.

٣- الحـــوار

تتفق كتب اللغة كلها في أن كلمة الحوار تدل على التحاور والتجاوب، ومراجعة الكلام بين طرفين، والمحاور والمحور والمحورة: كالحوير والحوار، ويكسر، والحِيرة والحويرة: مراجعة النطق، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم[٢].

والحوار مواجهة ومراجعة أما بين الفرد والذات، أو الفرد والآخر بل إن الحوار أصبح فناً من الفنون الإنسانية في إطار علم التفاوض الذي أصبح له أسس وقواعد، والحوار سمة من سمات الإنسان القائمة على الكلمة ولا يقصد به أن يتكلم الفرد بل أن يجعل الآخر يتكلم ويستمع إليه ولو لم يكن كلامه لائقاً، لأن المقصود من الحوار أن نصبر على الآخر ونستمع إليه دون أن يكون في ذلك ما يدل على الخصومة لأن الكلمة في أساسها وسيلة تواصل إنساني لأن هدفه هو التواصل وإن لم يكن هناك اتفاق.

وفي نطاق التوجه القرآني قوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٣]، والتوجه النبوي قوله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[٤].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط مادة (حَوَر).

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٤) رواه مسلم رقم ٤٨.

فالإنسان بحكم استخلافه وسيلته الكلمة، وأسلوبه الحوار، لأنّه مأمور بتبليغ كلمة الله في الأرض، لأنّه بالكلمة يبلّغ، وبها يوجّه ويراجع، وعلى أساسها يحقّق التّواصل بأخيه الإنسان، فالإنسان- كما قيل- يسمو بالحب ويسود بالقيم، ويتقدّم بالحوار.

ويعلّمنا القرآن الكريم أن يكون الحوار مع الذات أوّلا، تأملاً في ملكوت الله، ودراسة لكتاب الكون المنظور، ثم حوارا مع الآخر أي مع الإنسان أينما كان وكيفما كان ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

(1) آل عمران: الآية ٦٤.

مشروعية الحوار بالحكمة

الأصل في الحوار في الثقافة الإسلامية كما ذكرنا هو المراجعة في الكلام وهو التجاوب بما يقتضي ذلك من رحابة الصدر، وسماحة النفس، ورجاحة العقل وبما يتطلبه من ثقة، ويقين، وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيُّف، والتجاوب والتفاعل، والتعامل المتحضِّر الراقي مع الأفكار والآراء جميعاً، وبهذا يتأكد لدينا بما لا يرقى إليه الشكل أنَّ الحوار أصلٌ من الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية ينبع من رسالة الإسلام وهديه، ومن طبيعة ثقافته، وجوهر حضارته، واقتراح الحوار بالعقل يؤكد أيضاً على معنى سامٍ في سياق تحديدمدلول اللفظ، ذلك أن الحوار العاقل هو الذي يقوم على أساس راسخ ويعتمد على وسيلة سليمة ويهدف إلى غاية نبيلة، وارتباط الحوار بمعنى الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء يثبت في الضمير الإنساني فضيلة الاعتراف بالخطأ، ويُركِّز على قيمةٍ عظمى من قِيم الحياة الإنسانية وهي القبول بمبدأ المراجعة بالمفهوم الحضاري الواسع الذي يتجاوز الرجوع عن الخطأ إلى المراجعة الوقف برمته إذا اقتضت لوازم الحقيقة، وشروطها هذه المراجعة، واستدعى الأمر إعادة النظر في المسألة المطروحة للحوار على أي نحوٍ من الأنحاء وصولاً إلى جلاء الحق، فالحوار قِيمه من قِيم الحضارة الإسلامية المستندة أساساً إلى مبادئ الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء، وهو موقف فكري، وحالة وجدانية، وهو تعبير عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السوية وهي سِمة التسامح لا بمعنى التخاذل والضعف بوازعٍ من الهزيمة

النفسية، ولكن بمعنى الترفُّع عن الصغائر والتسامي على الضغائن، والتجافي عن الهوى والباطل[1]، وثقافة الحوار بهذا المفهوم ضرورة حياتية على المستوى الشخصي، والديني، والسياسي، والاجتماعي، والإقليمية، والعالمي يرتكز على الموضوعية، والإنصاف، والعدل وصولاً إلى الحقيقة، وإقامة علاقات إنسانية تُعزز ما يجمعنا، ويُوحدِّنا، ويُقرِّبنا، وتُعالج الجراحات، وثقافة الحوار هي التي تحقق التواصل بين الناس، والأديان، والثقافات، وتحقق الانفتاح بين المسلمين وغيرهم ليُقيموا علاقات إنسانية وروحية تؤدي إلى التعاون على البر والتعايش في الوطن دون طمس للخصوصية، أو مساومة على المبادئ، أو تهاون في الحقوق.

ثقافة الحوار دعوة إلى الاحتكام إلى العقل والحكمة في مواجهة العصبيات المريضة، والعقليات المغلقة، والآراء الشاذة، والمسائل المعقَّدة، والانفعالات العنيفة التي لا تؤدي إلى نتيجة ولا تخدم الأهداف المطلوبة في حوار بنّاء يخدم المصالح المشتركة، ويجنبنا ثقافة العنف والتطرف، والكراهية والبغض، والجهل والتخلُّف، والعنصرية والاحتراب.

نشر الثقافة الحوارية من واجبات الأسرة أولاً ثم المدرسة ومنظمات المجتمع المدني ومراكز الدّراسات والبحوث وأجهزة الدولة التوجيهية حتى يكون الوئام والتآخي بدل التشرذم والتفرّق، والمحبة والمودة بدل الكراهية والعنف والتقبّل للآخر بدل الإقصاء والتهميش.

---

(1) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٣- ١٤.

مشروعية الحوار في الكتاب الكريم:

للحوار في كتابنا العظيم وتراثنا الثقافي والعلمي والحضاري، معانٍ سامية، ودلالات عميقة، ولمَّا كان المعنى اللغوي للحوار يدور حول مراجعة الكلام والتفاعل، والتجاوب والتحاور بين طرفين فإن ذلك يعني أنَّ للحوار في تراثنا مكانة رفيعة تضم مجموعة من القِيم والمبادئ التي تُشكِّل أساس ثقافتنا وحضارتنا المُتسِمة بالرقي، والاعتراف بالآخر، والاستماع له، وإدارة الحديث معه دون أن يكون بينهما نزاع أو تخاصم، ومراجعة الكلام والأخذ والرد بين متحاورين متجاوبين يدل على ما يُربِّي عليه ديننا الحنيف من سماحة القول، ورحابة الصدر، وحُسن الظن، وتحكيم العقل بما يحقق التجاوب الفكري، والتفاعل العقلي، والتعامل الحضاري بين أفراد الأمة، والحوار بهذه الصيغة لم يرد في القرآن الكريم ولكنه جاء بصيغة المضارع مرتين في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[1]، وقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[2]، وبصيغة المصدر (تحاور) وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[3].

---

(1) سورة الكهف: الآية ٣٤.

(2) سورة الكهف، الآية ٣٧.

(3) سورة المجادلة: الآية ١.

والقـرآن الكـريم حافـل بأنواع مختلفة من الحوار باعتباره الوسيلة المثلـى للإقـناع والاقتـناع الذي يمثّل حقيقة الإيمان ومرتكزه، وأول نماذج الحوار في سورة البقرة ما كان بين الخالق عزَّ وجلَّ والملائكة في سيِّدنا آدم قـوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1]، ومـا كـان بين سيِّدنا إبراهيم عليه السلام حيـنما طلـب منه أن يُريه كيف يُحيي الموتى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، ومحاورتـه لـسيِّدنا عيـسى عليه السلام إن كان قد طلب من الناس أن يتّخذوه وأمه إلاهين من دون الله قـوله:﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣٠- ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

﴿لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، ومحاورته لسيِّدنا موسى عليه السلام حين طلب من ربه أن يراه وينظر إليه قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

ونوع آخر من الحوار في القرآن الكريم وهو حوار الأنبياء مع رسلهم مما يدل على أن الحوار هو سُنة الأنبياء والرُسل، فقصة سيِّدنا نوح عليه السلام مع قومه أُنموذج لأهمية الصبر والجَلَد، والتحمُّل في محاول إقناع الكفَّار من قومه وإدارته للحوار معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما

(1) سورة المائدة: الآيات ١١٦- ١١٩.
(2) سورة الأعراف: الآيتان ١٤٣- ١٤٤.

أخبرنا القرآن الكريم، وقد تكررت حوارات نوح عليه السلام في القرآن ابتداءً من سورة الأعراف قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، وانتهاءً بسورة نوح.

والقرآن يخبرنا أن الله تعالى أعطى سيدنا إبراهيم عليه السلام ملكة الحوار، وقوةالحُجة، والقدرة على الإقناع في محاجته للمَلِك الذي حاجَّه في ربه في سورة البقرة فأفحمه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وحواره مع أبيه وقومه في سورة الأنبياء قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

---

(1) سورة الأعراف: الآيات ٥٩- ٦٣.

(2) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ
ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا
فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾
أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾[١]، بل إن القرآن يعطينا نماذج من الحوار بين أنماط من الناس كالحوار بين ابني سيدنا آدم عليه السلام قوله: ﴿قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾[٢]، وحوار بلقيس مع رجال دولتها قوله: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾[٣]، وحوار أهل الجنة وأهل النار، وأهل الأعراف قوله:

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١- ٦٨.
(٢) المائدة الآيات ٢٧- ٢٩.
(٣) سورة النمل: الآية ٣٢.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[1]، وحوار الأتباع مع الذين أضلوهم قوله: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا

(1) سورة الأعراف: الآيات ٤٤- ٥١.

كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1]. وهناك نماذج كثيرة من الحوار في القرآن الكريم مما يعزز أهمية الحوار في حياة المسلمين باعتباره مرتكزاً أصيلاً من مرتكزات الحضارة الإسلامية، وواجهة ثقافية لهذه الحضارة، ونلاحظ أن القرآن الكريم استعمل كلمة (قال) مكان (حاور) كثيراً بما يزيد عن ألف وسبعمائة مرة بما يعزز مساحة الحوار، ويُعمِّق أهميته في القرآن، كما استعمل ألفاظ الجدال، والمراء، والمُحاجَّة فيما يكون من حوار بين طرفين على اختلافٍ في مدلول الكلمات الثلاث.

وكما يقول الدكتور سعد الدين العثمان: [يمكن بدون مبالغة أن نصف القرآن بأنه كتاب حوار، عَرض المبادئ التي يبشِّر بها كلها في مواقف مستمرة من الحوار، ولو كان هنالك من لا يُحَاوِر ولا يُحَاوَر، لكن هو الله سبحانه صاحب العزّة والجلال لكنه ها هو يحاور من قبل الملائكة في مشهد رائع يتجلّى في الحِلم الرباني، وها هو حوار الشيطان مع الله في مشاهد متعددة، ثم ها هم أنبياء الله يحاورون ربهم في مناسبات كثيرة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[2]، بل القرآن مليء بمشاهد الحوار مع مخالفيه يعرض آراءهم، وأقوالهم في أمانة، وقد لا يناقشها ولا يرد عليها، ثم إذا ناقشها حاكمها إلى الحجة والبرهان، وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن فعل (قال) ومشتقاته وردت في القرآن أكثر من (١٧٠٠)

---

(١) سورة الأعراف: الأيتان ٣٨- ٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

مرة مما يدل على المساحة الكبرى التي تحتلها المشاهد الحوارية في القرآن الكريم، وإذا كان القرآن قد قرر أنَّ الهدف من خلق البشرية شعوباً وأجناساً متفرقة هو أن يتعارفوا، فإنه لا تعارف بدون تحاور، وبذلك يكون الحوار هدفاً من أهداف خلق الإنسان في القرآن][1].

فالإنسان بحكم استخلافه وسيلته الكلمة، وأسلوبه الحوار، لأنه مأمور بتبليغ كلمة الله في الأرض لأنه بالكلمة يبلغ هدفه، وبها يواجه ويراجع، وعلى أساسها يحقق التواصل بأخيه الإنسان، فالإنسان كما قيل يسمو بالحُبِّ، ويسود بالقيم، ويتقدم بالحوار.

ويعلمنا القرآن أن يكون الحورا مع الذات أولاً تأملاً في ملكوت الله، ودراسة لكتاب الكون المنظور، ثم حواراً مع الآخر أي مع الإنسان أينما كان قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]، وثقافة الحوار هي التي تحقق التواصل بين الناس والأديان والثقافات، وتحقق الانفتاح بين المسلمين وغيرهم ليقيموا علاقات إنسانية وروحية تؤدي إلى التعاون على البر، والتعايش والتعارف دون طمس للخصوصية أو مساومة على المبادئ، أو تهاون في الحقوق.

فثقافة الحوار دعوة إلى الاحتكام إلى العقل والحكمة، ومواجهة العصبيات المريضة، والعقليات المغلقة، والآراء الشاذة، والمسائل المُعقَّدة،

---

(1) د. سعد الدين العثمان، في فقه الحوار، ص ٨- ٩، ط أولى منشورات الفرقان الدار البيضاء المغرب.

(2) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

والانفعالات السطحية التي تعرقل المساعي الحميدة، وتُسكت الأصوات العاقلة، وتُضيِّع المصالح المشتركة، وتُعمِّق ثقافة العنف والتطرف والكراهية، والبُغْض والجهل، والتخلُّف والعنصرية، والتعصب والصراع، والاحتراب.

وسيلتنا لنشر ثقافة الحوار تتحقق عن طريق التربية والتعليم والتوعية والتثقيف لأنها جميعاً تمثل آليات الحوار، وطرقه، وتقنياته التي بها نعالج المشكلات ونحل المنازعات بالطرق السِلمية، والوسائل الإيجابية وبحيث نفرِّق بين الخلاف المنبوذ والاختلاف المشروع.

مشروعية الحوار في السنة النبوية:

حاور الأنبياء أقوامهم فيما ذكر القرآن الكريم في نماذج في حوار الأنبياء مع أقوامهم بياناً للحق وإقناعاً لهم، ولرسول الله ﷺ أمثلة نموذجية في الحوار في قومه من أشكال مختلفة ومواقف متباينة جسَّد فيها رسول الله ﷺ أصول الحوار وأخلاقياته ووسائله وحدوده وآدابه، من ذلك حواره المشهور مع عتبة بن أبي ربيعة الذي حاوره الرسول ﷺ بعد أن استمع إليه في هدوء وسكينة واحترام، وبعد أن منحه فرصة عرض وجهة نظره دون مقاطعة أو استنكار ثم إنهاء الحوار بإعطائه الخيار له في الإيمان أو الكفر، وحوار الرسول ﷺ مع ضمان بن ثعلبة وافد بني سعد الذي أدار حواراً منطقياً هادئاً مع رسول الله ﷺ حيث كان يلقي السؤال فيجد الإجابة في كلمات صادقة هادئة بسيطة جعلته يرجع إلى قومه مؤمناً صادقاً، وكتب السيرة تذكر ذلك الحوار المشهور بين رسول الله ﷺ والأنصار في غزوة (حنين) حيث غضب الأنصار وجاء زعيمهم سعد بن

معاذ يحاور رسول الله ﷺ في صدق وأمانة وإخلاص حيث قال: [يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسَّمتَ في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء]. فسأله رسول الله ﷺ: (فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)، ثم دار الحوار الذي وضَّح الحقائق وهدَّأ النفوس وجعلها أكثر ارتباطاً برسول الله ﷺ، والسيرة مليئة بمواقف حوارية كثيرة بين الرسول ﷺ وبين أصحابه وأعدائه، والحباب بن المنذر يحاور الرسول ﷺ في المكان المناسب للنزول يوم بدر، وسيدنا عمر رضي الله عنه يحاوره في شروط صلح الحديبية ثم يقتنع بأنه فتح مبين، والأعرابي يغلظ الحوار مع رسول الله ﷺ بل يتهمه بأنه لم يحسن إليه فيعالج غلظته حتى يدعو لرسول الله [نعم فجزاك الله من أهل عشيرة خيراً].

ويحاور رسول الله شاباً جاءه يطل الإذن في الزنا فيستنكر ذلك أصحابهن ويُجلسه رسول الله ﷺ ويدخل معه في حوار عقلاني لا علاقة له بالإيمان فيخرج منه أكثر إيماناً، وأطهر قلباً، وأنقى سريرة، وأبغض الناس للزنا.

ويحاوره يهودي يبحث عن دلائل النبوة فيه ويغلظ في القول يتهم بني عبدالمطلب بأنهم يماطلون مدينيهم، ويكاد عمر أن يفتك به وإذا رسول الله ﷺ يحاوره بما يجب أن يكون ويكسب اليهودي في الإسلام.

بل إن النساء كن يحاورن رسول الله ﷺ فيستمع إليهن ويحاورهن بل إن الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وهكـذا كـان الرسول يربي أصحابه على حسن الاستماع وإدارة الحـوار واستعمال المنطق فيما يقتضي ذلك ضارباً المثل الأعلى في القدوة الحسنة والأسـلوب الـرقيق والحـوار الهـادف البنّاء المثمر، فيما روى ابن خـزيمة بإسـناده أن قريشاً جاءت إلى الحصين بن الحصين وكانوا يعظمونه فقالوا له: [كلّم هذا الرجل- أي محمد ﷺ- فإنه يَذْكُر آلهتنا بسوء ويسبهم فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النّبي ﷺ فقال: (أوسعوا للشيخ)، وعمـران وأصـحابه متوافـرون، فقـال حصين: ما هذا الذي بلغني عنك؟ إنـك تـشتم آلهتـنا وتذكرهم، فقال النّبي ﷺ: يا حصين كم تعبد من إله؟، فقـال حـصين: سـبعاً في الارض وواحـداً في الـسماء، فقـال الـنَّبي ﷺ فيـستجيب لـك وحـده وتـشركه معهـم؟! أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلـب علـيك؟ فقال حصين: ولا واحدة من هاتين، قال: وعلمتُ أني لم أكلّم مثله، فقال النبي ﷺ يا حسين أسْلِم تسلم، فقال حصين: إن لي قوماً وعـشيرة فمـاذا أقـول؟ قـال ﷺ: قل اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأسـألك عِلمـاً يـنفعني. فقالهـا حصين فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه ابنه فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النَّبي ﷺ بكى.

الحوار القرآني

إن سر التجدد في كتاب الله مرتبطة بظاهرة الحوار باعتباره المنهج العلمي الصحيح الذي تتحقق به المواجهة بين القلوب والعقول والأفكار والآراء، فالفطرة السليمة في الإنسان تقوى بالحوار وتتخلص من الآراء المحرَّفة وأساليب الضغط والإثارة.

والقرآن يقدم لنا النماذج من أساليب العنف والاستئصال التي استعان بها السابقون من الرسل بسبب بدائية الحضارة وتخلُّف الظروف الاجتماعية والثقافية، ثم ارتبطت هذه الأساليب في تاريخ البشرية بالمعجزات المادية التي ارتبطت بالدعوة إلى الله، وعندما وصلت البشرية إلى رشدها في ظل السنن الإلهية للخلق اختفت المعجزات وبرزت ظاهرة الحوار باعتباره الأداة الكبرى لعملية الإقناع والتواصل والتفاعل بين القلوب والعقول والأديان والفلسفات. هذا الحوار تميَّز بالواقعية في عرض الحقائق وذكر الأحداث وبيان أحكام الله ورسوله في أسلوب مميز في التعليم والتربية والتوجيه والوعظ، فهو حوار هدفه الدعوة إلى الله وبيان عقيدة الوحدانية ووضع التشريعات التي تنظم شؤون الحياة الدنيا والآخرة.

ولعل نزول القرآن منجماً استجابة لحركة الحياة اليومية في الأمة وتفسيراً لبعض الأحداث، أو شرحاً لبعض المواقف، أو إجابة عن سؤال محدد كل هذا يدل على أن منهج الحوار يرفض استباق الأمور والتعجل للأحداث.

وواقعية الحوار اقتضت تحديد أسلوب الحوار الذي اعتمد على قوة البيان والإعجاز البياني الذي تحدى فيه المعاندين أن يأتوا بمثله في الأسلوب والأداء ومجال التعبير ونصاعة البيان، كما أن هذا الحوار متنوع في موضوعاته وقضاياه وأساليبه، يتميز بالتزام الصدق والموضوعية وتحري الحقائق وإثبات الوقائع وعرضها بصورتها الواقعية حيث تلاشت الافتراءات والأكاذيب كلها أمام استقامة الحوار وظهارة الكلمة والالتزام بأدب الدعوة إلى الله، والتزام الصدق مرتبط بالمواجهة الصريحة والمجابهة الواضحة، فالرسول ﷺ يُعرض عليه المُلك، ويعرض عليه المال، ويعرض عليه الزواج بأنبل الفتيات في قريش فيقف مجاهراً بالحق ملتزماً بالرسالة.

الحوار القرآني تناول الأحداث كلها في مجال الدعوة سواء كان حواراً بين الطبقات والفئات، أم المشركين والمؤمنين، أم الوفود والقبائل، بل أبرز القرآن حوار المستضعفين مع كبرائهم ومُضليهم ومن ذلك حوار سيدنا إبراهيم في قومه، فهم ليسوا معاندين مكابرين كقوم نوح عليه السلام غير أن المناقشة معهم كانت عقيمة لا فائدة منها الأمر الذي جعله يحطم الأصنام ويضعهم أمام اختيار صعب يعترفون فيه أن الأصنام لا تنطق ولا تتحرك فهو حوار بسيط يتسم بالمنطق والعقلانية جعل عقولهم تستيقظ وتكتشف ما هم فيه من خزي وظلم لأنفسم، وخجل أمام الفضيحة التي واجهوها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[1]، ولكن المكابرة والارتباط القوي بالتقاليد الموروثة جعلتهم يوقرون آباءهم ويلغون عقولهم التي رفضت الإيمان

---

(1) سورة الأنبياء: الآية ٦٥.

مكابـرة وعـناد، وكـان نـتاج ذلك الحوار سقوط القوم في العناد والمكابرة ورفـض الاسـتجابة لـنداء العقل والمنطق واتخاذ العنف مع سيدنا إبراهيم نهايـة لـتلك المناقشة الحرة والحوار المسؤول، والفرق بين نتائج الحوار بين قـوم نوح وقوم إبراهيم أن الأولى انتهت باستئصالهم وبترهم، بينما الثانية إلى الدعوة إلى التعليم وإعمال الفكر والتدبُّر.

الحـوار بـين سـيدنا إبـراهيم والنمرود صاحب المُلك والذي يمثل حواراً جديداً يؤكد مكانة العقل في مواجهة الضلال ومقارعة الكفر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[(١)]، وكان نتيجة هذا الحوار أن النمرود قد بُهت وأسقط في يده.

الحوار الكبير هو الذي كان بين سيدنا إبراهيم وخالق الكون لأنه يتـناول العلاقـة بـين الأكوان وخالقها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٢)]، فهذا الحوار يبين لنا كيف استيقظت نفس إبراهيم الخليل في إصراره على التعرُّف على حقيقة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

الخلـق وطبيعة العلاقة بين الحياة والموت أو العدم والوجود فألهمه ربه أن يسأل ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ فيجيبه الله سبحانه بصيغة المُعلّم السائل ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ؟، فيعلن سيدنا إبراهيم الهدف من طلبه حيث تحقق لـه الطمأنينة وإدراك القوة الخالقة الموجودة في الوجود وفيما وراء الكون المادي، فيأتيه الأمر من الخالق أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها ويمزج بين أجزائها ثم يجعل على كل جبل جزءاً ثم يدعو هذه الطيور فتأتيه سعياً.

والأمر المستفاد من هذا الحوار أن العلاقة بين الخالق والمخلوق إنما هي مرتبطة بالإرادة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون دون البحث عن علاقة منطقية أو ربط بقانون السببية في سرِّ الإحياء والخلق، فالإرادة الإلهية تُوجد المخلوقات من العدم وتُخرج الحيَّ من الميت والميت من الحي، فهذا الحوار تعليم للمخلوق بطبيعة الخلق الإلهي الذي هو فرق إدراك المخلوق، وإن التفسير الوحيد للوجود هو إرادة الله ومشيئته وإيمان الإنسان بذلك، والتسليم بالإرادة الإلهية المعجزة.

لماذا المعجزة مكان الحوار؟

يتساءل المرء لماذا كانت المعجزة المادية عاملاً أساسياً في الإقناع والإيمان في الرسالات السابقة لرسالة سيدنا محمد ﷺ؟

للإجابة على هذا السؤال نلاحظ أن الوعي البشري لم يصل إلى مرحلة النضج بحيث يكون الحوار ومخاطبة العقل والبصائر هو وسيلة الإقناع لأن ملكات الوعي لم تجتمع للعقول المستنيرة، ولأن الخبرة

التراكمية لم تشكل عنصراً مهماً في الوعي الإنساني، فالمعجزة المادية لا تخاطب العقول ولكنها تُنبِّه الغافل، وتُوقظ النائم وتصدم بقوة وعنف من لم يرتقِ للمرحلة التي يمكن أن يتقبَّل الحوار الهادف الذي يعتمد على تراكمات وخبرات حياتية قديمة، فالمجتمعات السابقة للإسلام كانت متباينة في إمكاناتها وملكاتها، مما جعل الرُسل يتعاملون مع طبيعة المرحلة التاريخية والثقافية التي يعيشونها لأن الرسالات السماوية تنشد إيجاد قيادات فكرية دينية واعية تعمل على تطور المجتمع البشري وتقدمه وتحضره، وهذه القيادات هي التي حرص رسول الله ﷺ على إيجادها وتوفير أسباب القيادة لها هذا بالإضافة إلى أن الدعوات السابقة لرسالة سيدنا محمد ﷺ لم تكن عالمية بل كان نبيٌّ يبعث في قومه وكانت دعوته مرتبطة بهم وفي حدودهم الزمانية والمكانية، ولم يكن العالم آنذاك متقارباً فقد كانت بين الشعوب والقبائل عزلة شديدة حجرت عقولهم وحبستهم في عصبياتهم القبلية والدينية، وكان أنبياؤهم بمثابة المصابيح المضيئة في دياجير الظلام الحالكة حتى أن حوارات سيدنا إبراهيم كانت إشارات مستقبلية لرسالة سيدنا محمد الرسالة الخاتمة للبشرية، والقرآن في كثير من السور يعطي نماذج لأنواع من الحوار بين الأنبياء واقوامهم ومن يعاصرهم من البشر المعاندين لهم.

حوار موسى وفرعون:

هذا الحوار بصيغة المختلفة كانت منطلقاً للإيمان بالله والاقتناع به خالقاً مُدبِراً للكون مهيمناً عليه، ولنأخذ نموذجا الحوار الذي كان بين موسى وفرعون والسحرة والذي يبدأ بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا

مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾.

﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم
بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم
بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾.

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا
تَسۡعَىٰ﴾.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا
يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2].

نلاحظ على هذا الحوار أنه احتل مساحة واسعة تميز بالحركة وعرض الأفكار وردود الأفعال، ولم يكن كحوار سيدنا إبراهيم الذي يتميَّز بالقصر واللمحات السريعة مع أن المعجزة وسيلة للإقناع والتخويف والعقوبة لازال العنصر المهم في الدعوة إلى الله كما أن الدعوة لم تبلغ بعد مرحلة العالمية، وعن الحوار السابق وآثاره التربوية والدعوية يقول الشهيد سيد قطب- رحمه الله-: [ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري لاستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهز بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان، وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد أخر وحلقة من القصة جديدة، إنه مشهد

---

(1) سورة طه: الآية ٥٧ - ٧٠.

(2) سورة طه: ٧١ - ٧٣.

انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر، وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراق، وانتصار الحق على الباطل والهدى على الضلال والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود][1].

كما يلاحظ على ذلك الحوار أنه اتخذ مسارات متعددة في الإقناع الفكرة وما يستحسن بالمحاور والداعي والمربِّي أن يلتزم به:

١- إن سيدنا موسى قبل أن يدخل في المباراة مع السحرة رأى أن يبذل النصح لهم وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافراء على الله لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويهتدون بهدي الله، مبيِّناً لهم أن السحر افتراء ومصير المفتري الخيبة والمهانة.

٢- إن الكلمة الصادقة تنفذ إلى القلوب وتؤثر فيها كما تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة التي قالها موسى من عاقبة الافتراء على الله حتى أن نتيجة هذه الكلمة كانت أنهم تنازعوا أمرهم بينهم، فالكلمة الصادقة تُزعزع العقائد الباطلة وتوهن قدرتهم وقوتهم وعقيدتهم وفكرهم، فهذه الكلمة أربكت السحرة وجعلتهم يتناجون سراً ويعرفون خطورة ما هم فيه.

٣- الذي يتمسك بالحق ويدعو له لا يخاف لأنه متصل بالقوة الكبرى فهو يملك العقيدة الصادقة والإيمان القوي والحق المُعتمد على الصدق فقد يبدو الباطل ضخماً وكبيراً أمام مَن يُغفل قوة الحق التي تدمغ الباطل مهما كانت قوته ومَن يناصره.

---

(١) سيد قط، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٥.

٤- إنَّ الله تعالى هو مقلّب القلوب وإن لمسة الإيمان للقلب تحوِّله بقدرة الله من الكفر إلى الإيمان ومن الظلام إلى النور دون سلطان من أحد إلا سلطان الله وقدرته.

٥- التهديد بالعذاب والاستعلاء بالقوة هما سمات الطغاة والمتجبرين الذين لا يدركون أن اللمسة الإيمانية تجعل قوى الأرض كلها ضئيلة وتجعل الحياة الدنيا لا قيمة لها فاقض ما أنت قاض فما أقصر الحياة وما أهونها أمام ملكوت الخالق الذي هو خير وأبقى.

٦- الطغاة في الأرض يعتقدون دائماً أن الدعاة وأصحاب العقائد لهم أهداف دنيوية يخفونها وراء دعوتهم من بحث عن السلطة أو استيلاء على الحكم ولا يدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان ورصيداً من عون الله فهي تغلب بهذا ذلك لا بالظواهر والأشكال.

وكما ذكرنا فقد- اتخذ القرآن ضمن وسائله المتعددة في الدعوة إلى الله وتثبيت عقيدة التوحيد وما يتبع ذلك من أنواع البيان والتوضيح لشؤون البشر الدنيوية تشريعاً وتنظيماً ووعظاً وإرشاداً وتعليماً وثقافة تربية وسلوكاً- اتخذ القرآن الحوار وسيلة من وسائله.

وإذا بدأنا بالحوار الذي كان بين نوح وقومه نجد أنه حوار وصل إلى طريق مسدود فهو قد طالب قومه بعباد الله ليلاً ونهاراً، وبشَّرهم بأن الله سيغفر لهم ذنوبهم إن أقلعوا عن عنادهم ومكابرتهم، وسيرسل السماء بالخيرات والبركات ويزيدهم في أولادهم وأموالهم، وعندما بلغ به اليأس ذروته دعا ربه أن ينزل العقوبة بهم وأن يستثني نفسه والمؤمنين طالباً لهم المغفرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ

ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنًا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾[1].

وحوار آخر بين نوح والمشركين في قومه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

---

(1) سورة نوح: الآيات ٢٦- ٢٨.

(2) سورة هود: الآيات ٣٨- ٤٤.

فالطوفان الذي اجتاح قوم نوح المعاندين الذين رفضوا دعوته هو معجزة مادية وصلت إلى استئصال قوم نوح تأديباً وعظة لغيرهم لرفضهم للحوار المنطقي العقلي والتوجيه التعليمي، وضعاً لحد بين الخير والشر والهداية والتعليم والضلال والغواية فالمحصلة الحوارية هي تأديب وعقوبة في مواجهة العصيان والشرك مع التعليم والتوجيه للقلة الناجية من المؤمنين، ولم يخلُ حوار سيدنا نوح من إبراز بعض الجوانب العقلية، ولعل الأسلوب الذي استمر بعد سيدنا نوح ومع الأنبياء الآخرين كان مناسباً للمرحلة البدائية أو الطفولية في حياة البشر حيث لم تكن العقول قد تفتحت والنفوس قد استعدت للاستجابة لمعاني الدعوة إلى الله، ولكننا عندما نأتي إلى عصر سيِّد الأنبياء إبراهيم عليه السلام نجد نقلة نوعية أساسية في مجال الدعوة وميدان الحوار الذي بدأ يعتمد على الوعي والعقل والحكمة من خلال النماذج الأربعة للحوار التي ذكرت في القرآن الكريم والتي تمثَّلت فيما يلي:

١- حواره مع نفسه من خلال بحثه عن الحقيقة متسائلاً عن سر هذا الكون العجيب بظواهره المتعددة في الليل والنهار الأمر الذي يدل على سلامة فطرته وصفاء نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ

بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهۡتُ وَجۡهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٲتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۟ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1].

فهذه المحاورة الذاتية تهدف إلى معرفة الحقيقة التي قامت على قاعدة الخالق والمخلوق الفاني والباقي، والثابت والمتحول فهذا الحوار مع الأجرام السماوية التي لا قدرة لها على العقل والخلق لأن وراءها القوة المدبرة والجديرة بالإيمان والتوجيه إليه بالإيمان والعبودية.

٢- حواره مع أبيه وقومه الذين لم يصدقوه ولم يصلوا في إدراكهم العقلي إلى درجة التحرر من الخرافة وعبادة الأوثان التي عبدوها عن طريق التقليد لآبائهم وكأنهم يُعفون أنفسهم من مسؤولية هذه العبادة الموروثة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمۡ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٲتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۟ عَلَىٰ ذَٲلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَـٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٲذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٧٥- ٧٩.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

هذا الحوار يدل على نوع من الوعي والتطور في إدراك الناس.

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١- ٦٧.

الفصل السّابع

مقوّمات الحوار وشروطه وأهدافه

الفصل السّابع

مقومات الحوار وشروطه وأهدافه

من أهم مقومات الحوار وشروطه أن يتصف الحوار بالحكمة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]، فالحوار لا يكون هادفاً وجاداً إلا إذا اتسم بالحكمة التي هي جماع المعرفة والعلم والخير الكثير، قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]، وكما ترتبط الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فكذلك الحوار قرين الحكمة والموعظة الحسنة في جميع الأحوال، وهذا الارتباط هو من قبل ارتباط المنهج والمضمون بالوسيلة والأسلوب هو الموعظة الحسنة وليست أية موعظة على أي نحو من الأنحاء ولا بأية طريقة من الطرق ولكنها موعظة حسنة، وفي السياق القرآني تتبع الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن[3]، ولكي يحقق الإنسان سر الوجود في الأرض توحيداً واستخلافاً وتعميراً، وأمانة ومسؤولية، لا بد من ربط حياته كلها ومجالات نشاطه الفكري والثقافي والتربوي والتنظيمي بالقيم الحياتية العليا التي جاء بها القرآن الكريم وطالب الناس بتحويلها واقعاً في

---

(1) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(2) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(3) د. عبدالعزيز عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٥.

حياتهم، ومرجعاً لسلوكهم، وهذا كله لا يتحقق إلا بتحديد المرجعية التي ترتكز عليها هذه الأمة وتجعلها مصدر حياتها ومنطلق إبداعها، ولذلك نحتاج إلى أن تكون مقومات الحياة الإسلامية هي مقومات الحوار الذي يؤدي إلى الحق والعدل والسلام، وأولى هذه المقومات هي:

١- تحديد المرجعية:

لا يكون الحوار علمياً ومفيداً إلا إذا اتفق المتحاورون على أصول مرجعية متفقة عليها، ويكون هذا المرجع المعتمد فاصلاً بين الحق والباطل، وهذا يضمن للحوار السير في طريق واضح معروف، والمرجعية التي اتفق عليها المسلمون في كل زمان ومكان هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، وكما يقول الدكتور طه جابر العلواني: [لا بد من عملية تحديد الإطار المرجعي لهذه الأمة من جديد بحيث لا يصبح التراث كله وحده مصدر الأصالة كلها، ولا المعاصرة والحداثة كلها- وكما هي- إطاراً مرجعياً بحجج مختلفة، فإنَّ الإنسان لا يمكن أن يبدع إذا بلغت مصادره التي يرجع إليها هذا الحد من الكثرة والسعة، سواء في التراث أو في المعاصرة، فالإبداع يتحقق بتفجير طاقات الإنسان وقدراته والربط بينهما وبين هداية الكتاب المسطور وهو القرآن، وسنن وقوانين الكتاب المنثورة وهو الكون، وبالتالي فالإطار المرجعي ينبغي أن يتحدد للمسلم المعاصر بالقرآن الكريم مصدراً مُنشئاً للفكر والتصور والعقيدة والقيم، وأسس

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

النظم وقواعدها، والسنة النبوية الصحيحة الثابتة المرفوعة لرسول الله ﷺ الدائرة حول بيان القرآن المجيد باعتبارها مصدراً مبيِّناً لهذا القرآن بمختلف أنواع البيان[1]، والقرآن والسنة مرجعان معتمدان يرجع إليهما في بيان الحق من الباطل، والراجح من المرجوح، لأنهما الوسيلتان لمعرفة مراد الله ومراد رسوله، وقد نُسب إلى عبدالعزيز بن يحيى المكي في مناظرته لبشر المريسي أنه قال للخليفة المأمون: [كل متناظرين على غير أصل يكون بينهما، يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهُما كالسائر على غير طريق، وهو لا يعرف الحَجَّة فيتبعها ولا يعرف الموضع الذي يريد فيقصده، وهو لا يدري من أين جاء فيرجع فيطلب الطريق وهو على ضلال، ولكنَّا نؤصِّل فإذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه إلى الأصل، فإن وجدنا فيه، وإلا رمينا به ولم نلتفت إليه، قال المأمون: نِعمَ ما قلت، فاذكر الأصل الذي تريد أن يكون بينكما؟! قلتُ: يا أمير المؤمنين، الأصل بيني وبينه ما أمر الله- عز وجلَّ- واختاره لنا وعلَّمنا وأدَّبنا به في التنازع والاختلاف، ولم يكلنا إلى غيره ولا إلى أنفسنا واختيارنا فنعجز، قال المأمون: وهل ذلك موجود عن الله- عزَّ وجلَّ-؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فاذكر ذلك، قلتُ: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2]،

---

(1) د. طه جابر علواني، كيف نقتحم متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضي، كتاب المعرفة، ص ٤٠ -٤١، ط أولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م المملكة العربية السعودية.

(2) سورة النساء: الآية ٥٩.

فهـذا تعلـيم مـن الله وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين ما أصَّله المتنازعون بينهم][1].

إنَّ الاعتـصام بكـتاب الله وسـنة نبـيه، عِـصمة من الخطأ وهداية للـنفوس، ونجـاة مـن الـبدعة والـرآي في الـدين، لأن الـناس إذا جعلـوا المـرجعية لعقـولهم تشعبت بهم السبل بتشعُّب عقولهم وتباينها، يقول ابن القَـيِّم- رحمه الله-: [قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ نكرة في سياق الشرط تعـم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين جليِّه وخفيِّه، ولو لم يكن في كـتاب الله ورسـوله بـيان حُكـم مـا تنازعوا فيه ولم يكن كافياً، لم يأمر بالـرد إلـيه، إذ مـن المتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى مَن لا يوجد عنده فصل النزاع][2].

ويقـول الإمـام الشاطبي- رحمه الله-: [وبيانه أنَّ الخصمين إما أن يـتفقا علـى أصـل يـرجعان إلـيه أم لا، فـإن لم يـتفقا علـى شـيء لم يقع بمناظرتهما فائدة بحال وقد مر هذا، وإذا كان الدعوى لا بد لهما من دليل وكـان الدلـيل عند الخصم متنازعاً فيه، فليس عنده بدليل وصار الإثبات عبـثاً لا يفيد فائدةً ولا يُحصِّل مقصوداً، ومقصود المناظرة: ردُّ الخصم إلى الـصواب بطـريق يعـرفه، لأنَّ ردَّه بغـير مـا يعـرفه من باب تكليف ما لا يطـاق، فلا بد من رجوعهما إلى دليل يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المـستدل وعلـى ذلـك دلَّ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

(1) نقلاً عن أحمد بن عبدالرحمن الصويان، الحوار وأصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص ٥٦-٥٧.

(2) ابن القيِّم، أعلام الموقعين، ١/ ٤٦.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، لأنَّ الكتاب والسنة لا خلاف فيهما عند أهل الإسلام وهما الدليل والأصل المرجوع إليه في مسائل التنازع][2].

إنَّ تحديد المرجعية في كتاب الله وسنة رسوله يعصم الأمة من خطأ تعدد المرجعيات المذهبية أو الطائفية أو حتى الشيخية لأنَّ آراء المذاهب أو الطوائف أو العلماء والمشايخ، لا تشكّل مرجعية الناس وقد رفض هذا الاتجاه سيدنا عبدالله بن عباس عندما عارض بعضهم قول رسول الله ويقولنَّ: [قال أبو بكر وعمر][3].

وأمر آخر مهم وهو الاتفاق على مفهوم المصطلحات حتى يكون تفسير النصوص التي تمثّل المرجعية مُتَفِقاً مع مفاهيم الصحابة وعلماء المسلمين حتى لا تفسر النصوص بمفاهيم جديدة مخالفة لمقاصدها الأولى، ولذلك يقول الإمام ابن تيميه: [ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النَّبي ﷺ وعادتهم في الكلام، وإلاَّ حُرِّف الكلم عن مواضعه فإنَّ كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله والصحابة خلاف ذلك، وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام، والفقه، والنحو، والعامة وغيرهم وآخرون يتعمدون وضع الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ويقولون: إنا موافقون للأنبياء! وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومَن ضاهاهم من ملاحدة المتكلّمة والصوفية][4].

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٢) الموافقات، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ٤/ ٢٢٩، ط ٤ القاهرة.
(٣) مجموع الفتاوى، ٢٠/ ٢١٥.
(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١/ ١٤٣.

٢- تحديد المصطلحات:

كثيراً ما تؤدي المصطلحات والمفاهيم المتداولة إلى إخفاق الحوار فقد يتحدث إنسان ما عن مصطلح بالمفهوم الذي في ذهنه الذي يختلف عن المفهوم الذي في ذهن الطرف المحاور الآخر لذلك لا بد من أن يتوافر الاتفاق بدايةً عن المصطلحات التي يتعاملان معها وبها ليصل الحوار إلى هدفه المنشود وغايته المرجوة، ولعل هذا هو الذي دفع الدكتور محمد عمارة لتأليف كتاب (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) وفي مقدمة الكتاب يقول: [وإذا كانت العزلة الحضارية- في عالمنا المعاصر وفي ظل ثورة وسائل الاتصال- هي وهم كبير ... وإذا كانت المضامين الغربية والغريبة لكثير من المصطلحات العربية الإسلامية قد أصبحت جزءاً من واقعنا الفكري والثقافي الداخلي، نظراً لنجاحات التّغريب في حياتنا الفكرية والثقافية والإعلامية...، وإذا كان الحوار بين حضارتنا والحضارات الأخرى وكذلك الحوار بين تيارات الفكر في واقعنا الثقافي هو طوق النجاة من الاستقطاب الفكري المُدمِّر لمختلف الفرقاء، إذا كان الأمر كذلك فإنَّ تحرير مضامين المصطلحات واكتشاف مناطق الاتفاق ومناطق التمايز في معاني ومفاهيم هذه المصطلحات وخصوصاً تلك المصطلحات الأكثر شيوعاً والأكثر إثارةً للجدل بين تيارات الفكر في عصرنا وفي واقعنا هو مهمة أساسية وأولية بالنسة لأي حوار فكري حقيقي وجاد ينقذ حياتنا الفكرية من خطر الاستقطاب الحاد ويُوجِد لغة فكرية واحدة بين الفرقاء المتحاورين][1].

---

(١) محمد عمارة، ص ١٢.

إنَّ تحديد معاني المصطلحات ومضامينها تعتبر قمة الشروط الموضوعية لأي حوار جاد، ومثمر، وهادف والعبارة السائرة بين المفكرين إنه (لا مشاحة في الألفاظ والمصطلحات) تحتاج إلى إعادة نظر وضبط لمفهومها نتيجة للخلط الحادث الآن وبخاصة بين المصطلحات الإسلامية والعربية التي تحمل مضامين مختلفة، وسنجد أنفسنا عند الفحص والتدقيق وفي كثير جداً من الحالات وبإزاء العديد من المصطلحات أمام أوعية عامة وأدوات مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية والمذهبية، وفي ذات الوقت أمام مضامين خاصة ورسائل متميزة تختلف فيها وتتميز بها هذه الأوعية العامة والأدوات المشتركة لدى أهل كل حضارة من الحضارات المتميزة، وعند كل نسق أو مذهب أو عقيدة من الأنساق الفكرية والمذاهب الاجتماعية، والعقائد الدينية، وخاصة منها تلك التي امتلكت وتمتلك من السمات الخاصة والقسمات المميزة ما جعلها ويجعلها ذات مذهبية خاصة وطابع خاص[1]، وقد قدَّم الدكتور محمد عمارة نماذج متعددة لتباين المصطلحات بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية.

٣- التخطيط للحوار الحكيم:

وهذا شرط نجاح الحوار أن يخطط له بحيث يؤدي إلى الأهداف المطلوبة بحيث يكون متكافئاً، وبحيث يتحقق في المتحاورين الإرادة المشتركة والندِّية والرغبة في الوصول إلى نتائج وتحقيق منافع مشتركة

---

(١) محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، ص ٤، دار نهضة مصر ١٩٩٦م.

للطرفين، كما يقتضي التخطيط أن يكون الحوار متحضراً يبدأ بالنقاط المتفق عليها لأنها تُعمّق دائرة الالتقاء، وتجعل الثقة متوافرة بين الطرفين.

إن الترفع عن المواضيع التي تثير الخلاف يُجنِّ الطرفين شرط تنازل طرف لأخر عن ثوابته وقناعاته والعقدية والفكرية، ويجنبهما تناول المسائل الحساسة التي قد تعرقل مسيرة الحوار، إن التخطيط يستدعي أن تسير الأمور في خطوط متوازية بحيث لا يكون الحديث في موضوع عائقاً عن تناول الموضوعات الأخرى لتكون الحلقات مترابطة مؤدية إلى تكاملها في النهاية، وهذا التخطيط هو الذي يؤدي إلى التحكم في اتجاهات الحوار وقد وضع الإمام أبو حامد الغزالي تخطيطاً للحوار والمناظرة باعتباره تعاوناً على طلب الحق من الدين ويتلخص هذا التخطيط في شروط ثمانية هي:

١- أن لا يشغل نفسه بالحوار والمناظرة وهما فرض كفاية من لم يتفرغ من فروض الأعيان.

٢- أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة مثل مَن يرى جماعة مِن العطشى أشرفوا على الهلاك وبدلاً من سقيهم الماء اشتغل بتَعلُّم الحجامة زاعماً أنه من فروض الكفاية التي لو خلا البلد منها لهلك الناس ويقول: [فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة المُلحَّة بجماعة العطشى من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها].

٣- أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما أي يكون مستقلاً بالاجتهاد.

٤- أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً لأن الصحابة ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض.

٥- أن تكون المناظرة في الخلوة (سِريَّة) لأن في الخلوة صفاء للذهن ومدعاة للفهم، وإدرك للحق، وفي العلن ما يُحرِّك دواعي الرياء والحرص على الانتصار بالحق أو الباطل.

٦- أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا فارق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه مُعِيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ وأظهر له الحق.

٧- ألا يمنع محاوره أو مناظره في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال كما كان يفعل السلف الذين ينتقلون من دليل إلى قياس إلى أثر، ومن خبر إلى آية فيذكرون كل ما يخطر لهم.

٨. أن يناظره من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم[1].

٤- تصحيح المفاهيم:

كل إنسان تحاوره لديه مفاهيم وتصورات عن الموضوع المُحَاوَر فيه فقد تكون هذه المفاهيم صحيحة إذا كانت تصوراته صحيحة، وقد تكون مغلوطة إذا لم تكن مفاهيمه صحيحة، وهذا يقتضي من المُحاوِر أن يكون مُلماً بقضيته، متمكناً من واقعه ودعوته، حتى يواجه مُحاوِره بمعرفة تامة وأدلة واضحة، ويدحض حُججه بما لا يترك مجالاً أو حجة

---

(١) محمد عمارة، ص ٥٧- ٥٨ بتصرف.

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي الذي روي عنه أنه قال: [لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهتُ خروجه كراهية شديدة فخرجتُ حتى وقعتُ ناحية الروم أو حتى قدمتُ قيصر- كما في رواية أخرى- قال: فكرهتُ مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه، قال فقلتُ: والله لو أتيتُ هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني، وإن كان صادقاً علمتُ، قال: فقدمتُ فأتيته، فلما قدمتُ قال الناس عدي بن حاتم، فدخلتُ على رسول الله ﷺ فقال لي: (يا عدي بن حاتم، أسْلِم تسلم) ثلاثاً، قال: قلتُ: إني على دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلتُ: أنت تعلم بديني منّي؟! قال: نعم، ألستَ من الركوسيَّة[1]، وأنت تأكل مرباع[2] قوم؟ قلتُ: بلى، قال: هذا لا يَحلُّ لك في دينك، قال: نعم، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما تبعَهُ ضعاف الناس، ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ قلتُ: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: فوالذي نفسي بيده لَيُتِمنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَيفتحنَّ الله كنوز كسرى ابن هرمز، ولَيُبذَلنَّ المال حتى لا يقبله أحد، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوارٍ من أحد، ولقد كنتُ في مَن فتح كنوز كسرى، والذي نفسه بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها][3].

---

(1) الركوسية دينٌ بين النصارى والصابئين.

(2) المرباع ربع الغنيمة، لأن المال في الجاهلية يأخذ ربع الغنيمة دون أصحابه.

(3) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٢٥٧- ٢٧٨- ٢٧٩.

فالرسـول ﷺ حـاور عـدي بن حاتم، وهو أعلم بدينه منه حقيقةً، الأمـر الـذي جعله يؤمن بأنَّ رسول الله ﷺ على حق ويترتب على ذلك إيمانـه وجهـاده وسعيه بل أن صحابة رسول الله ﷺ قد رباهم رسول الله علـى ذلـك المنهج، منهج المحاوِر العَالِم بحجته، والعَالِم بمفاهيم مُحاورِهِ الـتي يعمـل علـى تصحيحها والدخول منها، وهذا ما كان مِن حاطب بن أبـي بلـتعة الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى المقوقس مَلِك الإسكندرية الذي قـال عـنه: [فجئتُ بكـتاب رسول الله فأنزلني في منزله وأقمتُ عنده ثم بعـث إليَّ وقد جمع بطاريقه، وقال: إنّي سائلك عن كلام فأُحبُّ أن تفهم عنّـي، قـال: قلتُ: هَلُمَّ. قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبيٌّ؟ قلتُ: بلـى هـو رسول الله. قال: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها؟. قال: قلتُ: عيسى بن مريم ألستَ تشهد أنه رسـول الله؟ قال: بلى.. قلتُ: فما له حين أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكـون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: حكيم قد جاء من عند حكيم، هذه هداياي أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك من يُبلغكَ مأمنك][1].

٥- رعاية الأولويات:

قد يسأل بماذا نبدأ الحوار مع الناس؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن على المتحاور أن يُرتِّب سُلم الأولـويات فـيُقدِّم الأهـم علـى المهم، والمتفق على المختلف فيه، وما هو عـيني علـى مـا هـو كفائـي، والفـروض علـى الـنوافل، والكلـيات على

(١) ان كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٢٧٢.

الجزئيات، وما كان قليل الضرر على كثيرة، وفي الناس أيضاً يحاور المسلم قبل الكافر، لأن المسلم الذي يتميز بالقصور في الفهم أو الغلو والتطرف في الرأي يحتاج إلى تصحيح مفاهيمه، وتعديل آرائه ومواقفه، وتوجيه اتجاهاته وسلوكه حتى يفهم الإسلام فهماً شاملاً دقيقاً صافياً.

ويأتي في سلم الأولويات محاورة جيراننا ومن هم أقرب إلينا، لأننا نعرفهم أكثر من غيرهم وهم يفهموننا أكثر من غيرهم، ولذلك كان رسول الله ﷺ يعاتب أقواماً لا يُعلِّمُونَ جيرانهم ولا يفقهونهم فيقول: [مَا بَالُ أقوامٍ لا يُفقِّهون جيرانهم ولا يُعلِّمونهم ولا يعظونهم ويأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون، والله ليُعلِّمنَّ قومٌ جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم، وليتعلَّمنَّ قومٌ من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة][1]. والله سبحانه وتعالى أمر بمراعاة فقه الأولويات حينما أمر رسول الله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين.

ومحاورة المثقفين تقوم على محاورة الأميين لأن المثقفين أقدر على إدارة الحوار وتقبلُ الرأي الآخر ومحاكمة الآراء والأفكار، والوصول إلى قناعاة ثم تأثير المثقفين على مجتمعاتهم أكثر من غيرهم لأنهم هم حملة الأفكار، ومروِّجي المبادئ، والمدافعين عن الرأي والساعين إلى الحق وفي هؤلاء المثقفين نقدمٌ أصحاب العقول الراجحة والآراء العلمية على غيرهم، كما نحاور المتواضعين منهم قبل المتكبرين لأن المتكبر مكابر في الحق مُتعالٍ على الناس بينما التواضع سمة الخيرين الباحثين عن الحق

---

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد، كتاب العلم، ١/ ١٦٤.

المتمسكين بـه والعـاملين لـه، ومحاورة الشباب تقدَّم على محاورة الشيوخ لأن الشباب ألين عوداً، وأكثر قدرةً على تقبُّل التغيير والتجديد والانفتاح والبحث عن الحق والدفاع عنه، ولذلك قال فيهم رسول الله ﷺ: [أوصيكم بالشباب خيراً، فإنهم أرق أفئدة، إن الله بعثني بالجنة السمحة فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾]، أما الشيوخ فإنَّ معظمهم قد تصلبوا على أفكارهم، وشابوا على آرائهم، وكوَّنوا قناعاتهم، وارتبطوا بمصالح ارتبطت بحياتهم ففي إعادة صياغتهم صعوبة، وفي خلعهم عن قناعاتهم مشقة يحتاجون إلى جهد كبير وصبر أكبر، وفي الصبر عليهم وكسبهم فائدة كبيرة لأنهم إذا غيَّروا آراءهم وعدَّلوا أفكارهم سيتحولون إلى الطرف الآخر بخبرات كبيرة واستعدادت هائلة وقناعات مفيدة للدعوة والفكرة، كما أن الشيوخ يكون تأثيرهم أكبر في مجال التغيير السياسي أو الاجتماعي إن كانوا أصحاب مراكز مرموقة، ومواقع قيادية، وكان هذا هو منهج رسول الله ﷺ في الدعوة، إذ كان يسأل الله أن يُعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليه، أبي جهل أو عمر بن الخطاب حيث كان إسلام عُمر قوةً للإسلام ومنعةً للمستضعفين، وهذا هو المنهج الذي سار عليه سيدنا مصعب بن عمير، أول داعية في المدينة حيث ركَّز على إقناع سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير اللذين كان إسلامهما سبباً في إسلام أهل المدينة.

كل عمل إنساني مشترك بين الناس لا بد فيه من قواعد تحكم هذا العمل وشروط يلتزم بها الأفراد حتى يكون العمل مثمراً والغاية مدركة، هذه الشروط هي شروط أخلاقية مهمة لضط العمل وتطوير الحوار وتجنبه للفشل، فيما يتعلق بالجوان الموضوعية المتعلقة بالفكرة والمنهج والأسلوب يمكن اعتبارها شروطاً، وما يتعلق بالجوانب السلوكية للمتحاورين والجوان الخُلُقية يمكن اعتبارها آداباً وكلها في النهاية -شروطاً أو آداب- معينات على تنظيم حركة الحوار وسلامة الفكر وصولاً إلى الحقيقة، ومن هذه الشروط:

١- سلامة النيَّة:

فالأعمال بالنيَّات ولكل امرئ ما نوى، فالذي ينوي الوصول إلى الحقيقة لا بد أن يكون سليم النيَّة لا يهدف بالحوار غلبة فكرية أو مباهاة علمية، أو ثناءً أو مدحاً بل هو متجرد يبحث عن الحق حتى ولو كان عند محاوره فهو على استعداد للرجوع عن رأيه إن كان الحق مع محاوره لأن المناقش كما قال الإمام أبو حامد الغزالي: [كناشد ضالة لا يفرق بين أن يظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ أو أظهر له الحق][١]، كما لو أخذ طريقاً في طل ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٥٧، ط ثالثة ١٤١١هـ- ١٩٩١م دار الفكر، بيروت.

يذمه ويُكرمه ويفرح به، فهكذا كانا مشاورات الصحابة ﷺ حتى أن امرأةً ردت علـى عمر ﷺ ونبهته على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس فقـال: [أصـابت امـرأة وأخطأ رجل]، وسأل رجل علياً ﷺ فأجابه فقال: [ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا]. فقال: [أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي عِلمٍ عليم][1].

وعـن النـية يقول ابن القيِّم: [فأما النية فهي رأس الأمر وعموده وأساسـه وأصـله الـذي يبنـى علـيه، فإنهـا روح العمـل وقائـده وسائقه والعمـل تابـع لهـا يـبني علـيها، يـصح بـصحتها ويفـسد بفـسادها، وبهـا يستجلب التوفيق وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنـيا والآخرة، فكم من مريد بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عـنده، ومـريد بهـا وجـه المخلـوق ورجـاء منفعته وما يناله منه تخويفاً أو طمعاً فيُفتي الرجل بالفتوى الواحدة وبينهما في الفضل والثواب أعظم مما بـين المـشرق والمغـرب، هـذا يُفـتي لـتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهـر ورسـوله هو المطاع، وهذا يُفتي الكتاب والسنة أو خالفها، والنية الحسنة دليل على أن المحاور يريد الحق وليس سواه][2].

وفي يقـول الإمـام الـشافعي: [ما ناظرتُ أحداً قط إلا أحببتُ أن يُوفـق أو يُـسدد ويُعـان، ويكـون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرتُ أحداً إلا ولم أُبالِ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه][3].

(١) المصدر السابق، ١/ ٥٧.

(٢) ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين، ٤/ ١١٩.

(٣) ابن حجر العسقلاني، في مناقب الإمام الشافعي، ص ١١٤.

٢- الأمانة والصدق:

المنهج العلمي في الحوار يرتكز على مقومين أساسين هما: الأمانة، والنزاهة، فالأمانة العلمية تقتضي أن نُرجع أفكارنا إلى مصادرها وأن ندعم آراءنا بالشواهد والأدلة التي نأخذها أو نقتبسها من الكتاب أو السنة أو آراء العلماء والباحثين من أهل الاختصاص والخبرة والدراية، فالمحاور مُطالَب تديُّناً أن يذكر من الحجج والأدلة ما يوافق رأيه وما يخالفه، حتى يحقق لمحاورته التوازن والعدل ولا يكون من الذين يغفلون من الحقائق ما يدعم قول مخالفيهم ويظهرون ما يعزز حججهم وآراءهم فيتصفون بصفة اليهود الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، وأهل العِلم كما يذكر علماؤنا يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم.

المُحَاوِر مطالَب بالتزام المنهج العلمي في حواره بحيث يذكر مصادر حديثة من الموسوعات والكتب وأقوال العلماء المتخصصين الموثوق بهم، وأن يكون أميناً نزيهاً فيما ينقل وينس فلا يبتر عبارة من سياق الكلام تخدم رأيه أو يضع كلاماً في مكان يخدم به حجته، وفي هذا يقول الإمام ابن تيميه: [فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن يُنبِّه على الصحيح منهاويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النّزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم، فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا يُنبِّه على الصحيح من الأقوال فهو ناقصٌ أيضاً][1].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص ٣٦٨.

فالمحاور مطالب بإبراز حجته والحرص عليها كما هو مطالب بإبراز حجج من يحاوره والنظر لأن ذلك من الأمانة والإنصاف ودليل التعقل والتواضع ومجانبة التعصُّب المذموم، يقول ابن تيمية: [والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[١]، فقول الصدق والتزام الأمانة والعدل من لوازم المحاور العاقل بل أن الله أمر عباده ألا يقولوا عليه إلا الحق وألا نقول إلا بما نعلم كما أمرنا بالعدل والإنصاف حتى مع اليهود والنصارى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾][٢].

٣- حُسن البيان:

يقول العرب:

إنَّ الكَلامَ لَفي الفُؤادِ وإنَّما ** جُعلِ اللسَانُ عَلَى الفُؤادِ دَلِيلا

المحاوِر الجيِّد هو الذي يرتكز في أدواته على فصاحة لسانه، وقوة تعبيره، وقدراته البيانية، فالكلام الفصيح الخالي من التعقيد والغموض، والخالي من الأخطاء التعبيرية والنحوية واللغوية هو الذي يوصل المعلومة الصحيحة والفكرة السليمة إلى المحاور الآخر، فقد يملك المحاور

---

(١) العنكبوت: الآية ٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٩.

لساناً بليغاً، وبياناً فصيحاً، وقدرةً على التعبير والتلوين في الكلام ولا يملك حجة قوية ولا فكراً مقنعاً فإذا حاور من يملك الحجة والدليل والفكرة ولا يملك البيان والفصاحة ضاعت الحقيقة لأنها لم تُعرض في اللغة التي تظهر والبيان الذي يعززها.

إنَّ معرفة المحاور لمخارج الحروف وصفاتها وضبط الكلام وإتقان الحديث ومعرفة اللغة تجعل كلامه جميلاً مقنعاً خالياً من الأخطاء مقبولاً لدى الطرف الآخر لسهولة فهمه، وسلاسة منطقه، وقدرته على البيان والتبيين، كما أن حدة الذاكرة، وحضور البديهة، وسهولة الإجابة، من مطالب الحوار الجيِّد الناجح، عندما تكون لغة الحوار سهلة خالية من التكلُّف وكثرة الكلام والتشدق في الحديث والتفيهق وملء الفم بالألفاظ كلها عوامل مطلوبة لدى المتحاورين، والتنوع في الحديث يتطلب من المحاور أن يكون إلى جانب الآيات والأحاديث التي تعزز موقفه بالشعر والأمثال والطرائف والنوادر والقصص حتى يجذب انتباه من يستمع إليه ويقنعه بفكرته ويقرِّب له فهم ما يريد، وحسن البيان يتطلب من المحاور أن يتذكر دائماً أنه مناقش ومحاور وليس خطيباً يرفع صوته ويشير بيديه ويستسلم لعواطفه وانفعالاته فيكرر نفسه ويضيع حجته، فالمحاور مطالب بالسيطرة على نفسه والتحكُّم في لسانه وقوله وعواطفه وانفعالاته حتى تكون طريقته في الحديث هادئة ومقنعة، وأسلوبه في الاستفسار والرد مقبولاً دون تعالٍ في القول، أو تكبُّر على الناس حتى يفوز باحترام الآخرين وانتباههم لطريقته وحجته لأنه ينشد الحق، ويبحث عن الصواب، ويعمل لإقناع الآخرين برأيه، وعلى المحاور ألا ينسى نفسه فيسترسل في الكلام ويستطرد في الحديث لأن كثرة الحديث ينسى بعضه بعضاً فتضيع معالم الفكرة.

أهداف الحوار بالحكمة

كل أمر يمارس في الحياة قولاً أو فعلاً لا بد له من هدف، فالحياة لا تسير نحو غاية مجهولة والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[1]. ووسيلة التعارف هي الحوار، والحوار أهدافه كثيرة:

أهداف إنسانية:

تتمثل في كل ما يحقق الخير في الأرض وما يجعله محققاً لسر وجوده عبادةً لله، واستعماراً للأرض ونشراً للأمن والسلام والطمأنينة والرخاء والسعادة والرضا والتعارف الذي ذكره القرآن، هو الذي يزيل الحواجز النفسية بين الناس، ويحقق التقارب، والتعاون بينهم فيما اتفقوا عليه ويوفر بينهم التفاهم والتعايش فيما اختلفوا فيه، والمعرفة تراث إنساني لا بد لكل شخص أن يأخذ نصيبه منه وأن تتاح له الفرصة لذلك لأن ذلك هي وسيلة الإنسان للمشاركة في التقدم البشري والإسهام في زيادة المعرفة الإنسانية، والانتفاع بمردود المعرفة البشرية، وهذا ما يؤدي إلى اتساع دائرة المشاركة والتعارف والتعاون لتنتقل من الأفراد إلى الأمم والشعوب بحيث يبنى العلاقات الدولية على أسس من التفاهم المشترك، والحوار البنَّاء ومعرفة كل طرف بالآخر معرفةً تُعمِّق التواصل بين الشعوب.

---

(1) سورة الحجرات: الآية ١٣.

ولا تقتصر الأهداف الإنسانية على إثراء الجوانب المعرفية الذهنية والمادية، بل لا بد من العمل عن طريق الحوار لإبراز القيم الإنسانية والمعاني الروحية، والمفاهيم الثقافية التي تعمِّق روح الإخاء والمحبة والطمأنينة، والسلام ونبذ العنف والاحترام للآخر، بل إزالة كل الأسباب التي تعرقل أسباب التعاون والتواصل والتفاهم والحوار، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تقارب المفاهيم وتحاور الثقافات وتفاعل الحضارات.

أهداف ثقافية:

التفاعل بين الثقافات والحضارات هو الذي يحقق المعنى القرآني للتعارف الذي يحقق عملية التواصل بين الشعوب والتعاون بينها على الخير وتحقيق معاني العدل والإحسان والأمن والسلام.

المعرفة البشرية تراث إنساني غير محتكر وعالم اليوم يعتمد على المعلومة التي يملكها أطراف مختلفة، الأمر الذي يفرض تبادل المعلومات والمعارف بحيث يقوم الحوار بين الناس على أساس أن كل واحد يملك من المعلومات ما يحتاج إليها الآخرون عن طريق الحوار والتعاون والتعارف، والتعاون الثقافي في مجال المعلومات هي التي تساعد عملية الحوار بين الحضارات والثقافات وتجعل الحوار مبنياً على الإقناع الفكري، والتدافع العقلي، لأن العقل هو وسيلة المحاورة والمجادلة، والإقناع والإقتناع، والتفاعل الثقافي وسيلته التدافع الحضاري وليس الصراع الحضاري لأن التفاعل عملية تدافع وتحاور مستمر يهدف إلى إحقاق الحق، ونشر العدل، وإشاعة التسامح وتعميم الخير للإنسانية كلها، وكما يقول الدكتور عبدالعزيز التويجري: [إنَّ الحوار الحضاري هو النمط

الأرقـى مـن الحـوارات الـتي تجري بين الفئات المثقفة من البشر، وهو لا يـرتبط بـشكل محـدد ولا بصيغة معينة، ولا بمكان أو زمان، ولكنه مجموع للعملـيات التفاعلـية الـتي تـتم علـى مخـتلف المـستويات الـسياسية، والاقتـصادية، والثقافـية، والفنـية، والاجتماعـية، والإعلامية، ولا بد أن يكـون للعـالم العربـي الإسـلامي مـشاركة فاعلـة ومؤثـرة في جميع أنماط الحـوار، وبـصفة أخـص الحـوار الحضاري الذي يُعدُّ المدخل الرئيسي إلى التفاعل الحضاري][1].

أهداف حضارية:

مـن مقتـضيات العـدل أن يكون للحوار هدف مؤثر وفاعل وأن يُبنى على أساس من الندِّيَّة والاحترام المتبادل، والنظرة المتكافئة بعيداً عن نظـرة الاسـتعلاء الحـضاري الـذي يقول الدكتور التويجري: [إنَّ التفاعل الحـضاري عملـية تكاملـية تـتم بـين الطـرفين، وتمتزج فيها عناصر شتى وتـؤدي في الـنهاية إلى حالـة مـن الانسجام والتناغم، وهي ليست عملية عشوائية لا إرادية ولا هي ضربٌ من الترف الفكري، وإنما هي فعل ينتج عن التقاء إرادتين تسعيان إلى تبادل التأثير في المحيط الاجتماعي على تنوُّع مناشطه، وتشعبُ ضوابطه][2].

هـذا الهـدف يقتـضي أن يفـرض علينـا أن نمـد يـدنا للتعاون مع الحضارات المختلفة والثقافات المتعددة لإحداث عملية التفاعل والتقارب والـتعارف، دون أن يكـون في ذلـك ما يشوِّه ثقافتنا أو يُغرِّب تفكيرنا، أو

---

(1) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٢٦.

(2) المصدر السابق، ص ٢٤.

يزحزح ثوابتنا، لأن التفاعل الحضاري الذي يمسخ الآخرين ولا ترتبط به منفعة متبادلة لا قيمة له، لأن هدف هذا التفاعل الحضاري هو ترسيخ قيم التسامح وتعميق وحدة الأصل الإنساني بما يحقق التعارف الذي قصده القرآن الكريم، فالحضارة الإسلامية قامت على الحوار وأخذت من ثقافات الأمم السابقة وعلومها وهضمت تلك الثقافات ثم أضافت إليها وأفرزتها في حضارتها التي كانت مثالاً للتفاعل بين الحضارات والتلاقح بين الثقافات، ومن أجل هذا كله فإنه ينبغي أن يكون الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات حواراً هادفاً مؤثراً، وتفاعلاً فاعلاً وبانياً، يجب أن يقوما على قاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقي الرفيع، وبالمدلول الحضاري السامي، كما يجب أن يقوم الحوار والتفاعل بين الثقافات والحضارات على قواعد اجتمع البشر على صحتها وسلامتها وانعقد إجماع الإنسانية على اعتبارها القانون الذي يحكم المجتمع الدولي حتى يكون الحوار والتفاعل الحضاري في هذا الإطار مستندين إلى الشرعية الدولية وإلى قواعد القانون الدولي بحسبان أن هذه الشرعية وهذه القواسم المشتركة بين جميع الشعوب والحكومات في عالمنا المعاصر وهي المرجعية المتفق عليها[1].

ولعل إرادة الحوار وفق هذه المعطيات هو الذي سيحقق هدف القرآن في تحقيق التعارف ثم التعاون على البرِّ والحق والعدل، وهو الذي سيحل كثيراً من الأزمات النفسية، والسياسية، والفكرية، والاقتصادية، التي تساعد العالم الإسلامي على المشاركة العملية في التقارب الإنساني المتسع والتبادل الثقافي والفكري وإثبات الوجود بعيداً عن هيمنة العولمة

---

(١) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٢٤.

التي تهدف إلى تذويب الثقافات ومحو الخصوصيات الفكرية والحضارية للشعوب التي لم تكمل استعدادها للمشاركة الفاعلة والتأثير الإيجابي في حركة الحياة العالمية والأمة الإسلامية بما تملك من تراث حضاري وإرث علمي ومقومات فكرية وثقافية قادرة على تحصين نفسها ضد الغزو الثقافي والاستلاب الفكري والذوبان الثقافي والانصهار الحضاري، وكما يقول الدكتور أحمد صدقي الدجاني في تعاملنا مع العولمة: [علينا أن نثق بأنَّ هويتنا الحضارية ستكون راسخة وخصوصاً أنَّ الهوية دائماً جماع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية كونية، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى، بالمنطق الفعال هذا نواجه هذه الظاهرة وكلنا ثقة أنَّ قيم حضارتنا ستنجح في التغلغل داخل دائرة تسيطر عليها العولمة وهي الدائرة الغربية لأن في الإنسان نزعة للتطهر وهناك قِيم الاستهلاك والتسلية وما تأتي به العلمانية التي لا تنظر إلى الإنسان إلا عن أنه مستهلك مادي ليس إلاّ][1].

---

(1) د. محمد إبراهيم مبروك وآخرون، الإسلام والعولمة، ص ٣١، دار القومية العربية القاهرة ١٩٩٩م.

الفصل الثامن

آداب الحـــوار بالحكمـــة

١- آداب الحوار بالحكمة.

٢- منهجية الحوار بالحكمة.

الفصل الثامن

ا - آداب الحوار بالحكمة

للحوار بالحكمة شروط لا بد من الالتزام بها ليؤدي الحوار هدفه وتتضح الحقيقة ومع ذلك لا بد من آداب تراعى في الحوار لأنها تهيئ الجو الحسن للحوار وتوفر المناخ الصحي الذي يُمكِّن للناس أن يتحاوروا فيه، وآداب الحوار بالحكمة كثيرة منها:

١- الاحترام المتبادل

بالمعنى الأخلاقي الرفيع للاحترام وبمدلوله الحضاري الراقي الذي مارسه رسول الله ﷺ في حواره مع عتبة بن ربيعة حيث ناداه بكنيته وخاطبه بما يليق به: (قُل يا أبا الوليد، أسْمَع) ثم استزاده الكلام بعد أن انتهى فهذا أدبٌ جم نتعلَّمُه من رسول الله ﷺ في كيفية الحوار وآلياته من احترام للمُحَاور، وتخيُّر للألفاظ والعبارات، وذوق، وحُسن أدب، الأمر الذي يجعل الطَرف الآخر مطمئناً لُمحدِّثه مُقبِلاً عليه بكيانه كله، ومن سمات الاحترام مناداة المُحاور باسمه أو كنيته أو اللقب الحبيب لديه سواء أكان لقباً أكاديمياً أو مهنياً أو تقديرياً، ومن الاحترام للمحاور الثناء على أفكاره الجيِّدة وطريقة أسلوبه وحججه التي يسوقها، والرد عليه بما يؤكد احترامك له، وموافقتك في بعض آرائه واختلافك مع بعضها، ومن مظاهر الاحترام للآخرين بعد حُسن الاستماع، أن نحتفظ بهدوئنا ولا نُظهر ردود فعلنا وأن لا نُظهر ما يدل على قبولنا أو رفضنا قبل أن ينتهي من حديثه، ومن الاحترام على معرفة التفاصيل وتقصِّي الحقائق وإجلاء الغموض أو التأكيد على بعض المعاني التي نريد تعزيز فهمنا فيها.

ومن الاحترام للمُحاوِر أن نرد عليه بما نتوافق معه أولاً ثم نناقشة فيما نختلف معه دون تسفيه لرأيه، أو تصغير لشأنه آخذين في الاعتبار سمات شخصيته ومدى قابليته للنقد واستعداده لمراجعة أفكاره.

ومن مظاهر الاحترام أن تكون المناقشة هادئة بلطف وأناة وتقدير وتقديم لعبارات اللطف وطلب السماح بالحديث، وإظهار أنك قد تكون مخطئاً وتحتاج لُمحاوِر أن يُصوِّبك فيما أخطأت فيه أو لم تُحسن فهمه.

ومن مظاهر احترام الآخر عفة اللسان حين يفقد الطرف الآخر هدوءه ويختل توازنه، ويرتفع صوته، ويغلب الانفعال على سلوكه، وينعكس في ألفاظه الجارحة أو كلماته اللاذعة، أو سخريته وتهكمه لأن هذا دليل غياب الحُجة عنده فإذا استويت معه ضاعت الحقيقة وطمس الهدف من الحوار فعفة اللسان وضبط الانفعال والتغاضي عن الألفاظ تُكسب الإنسان في النهاية وُدَّ محاوِره واحترامه، والاقتناع بفكرة إنَّ وجود قواسم مشتركة من القيم الإنسانية ومبادئ الدين والأخلاق يمكن أن تُشكِّل الأرضية التي ينطلق منها المتحاوران لأن تلك المبادئ هي التي تحكم حياة البشر وتوجه مسارهم، وتضبط حركتهم، وتحدد قواعد التعامل بينهم، وهذا ما يحفظ الحوار من اللجاجة والجدل المذموم ولا والتّقليل من أقدار الناس وفقدان الجو النفسي والحضاري والإنساني لأرضية الحوار.

٢- الجدل بالتالي هي أحسن:

المجادلة بالتي هي أحسن تتطلب اتباع الأسلوب اللِّين، والمقابلة السليمة لكل مظاهر العنف في الحديث أو الفعل، والقرآن الكريم يركز على هذا الأدب باعتباره أدباً شافياً بل باعتباره أدباً مغيراً لطبيعة الطرف الآخر الذي بالأحسن يتحول من عدو إلى صديق، ومن نافر إلى آلف، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

وهذا الأدب يكتسبه المسلم بالتربية ومجاهدة النفس، والصبر على مكدرات الدعوة ومتاعب الحوار، والمسلم مطالب بأدب الحوار المحدد على القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[3]،

---

(١) سورة فُصلت: الآيات ٣٣- ٣٥.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

أما السنة النبوية فالأحاديث كثيرة نذكر منها قوله ﷺ: (مَنْ يُحْرَم الرفق يُحْرَم الخير كُلَّه)[2] وقوله ﷺ: (إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرفق ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف وما لا يعطى ما سواه)[3]، وقوله ﷺ: (إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلاّ زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه)[4].

وهذا يعني التحاور مع الآخر بخُلُق فاضل، وكلمة طيبة، ووداعة ورقة، وجمال في الكلام، وسداد في القول، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[5].

فصلاح العمل مرتبط بالقول السديد ونجاح الحوار مرتبط بالقول السديد، وطاعة الله مرتبطة بالقول السديد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[6] بل الله سبحانه وتعالى يطالب سيدنا موسى أن يُلين القول لمن قال لقومه أنا ربكم الأعلى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[7]، مع علم الله بكفره وعناده وإصراره،

---

(1) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(2) رواه مسلم، رقم ٢٥٩٢- رياض الصالحين ١٩٩.

(3) رواه مسلم، رقم ٢٥٩٣- رياض الصالحين ١٩٨.

(4) رواه مسلم، رقم ٢٥٩٤- رياض الصالحين ١٩٨.

(5) سورة الأحزا: الآيتان ٧٠- ٧١.

(6) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤- ٢٥.

(7) سورة طه: الآية ٤٤.

كل ذلك تربية للمؤمنين، وأدباً في أدبيات حياتهم وسيدنا إبراهيم يخاطب أباه الكافر برفق ولين: (يا أبتِ إني قد وُهبتُ علماً ليس معك، يا أبتِ إني أخاف عليك من مسٍّ الشيطان، ثم يردُّ عليه عندما رأى إصراره على الكفر رداً رفيقاً رقيقاً قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[1].

فإذا كان الله تعالى يُعلِّم رسوله كالأنبياء قبله أن يجادل قومه بالحسنى ويعاملهم باللين ويرفق بهم وقد آذوه وكذبوه وأساءوا إليه، إذا كان ذلك أدب الله لأنبيائه فإنَّ هذا الأدب مبدأ في الحوار ومنهج لأصحاب رسول الله ﷺ أن يحترموا الرأي الآخر دون إهمال أو تحقير أو تسفيه.

وفي تفسير الآية: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يقو الشهيد سيد قطب -رحمه الله-: [والجدال بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أنَّ ليس هدفه هو الغلبة في الدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلف على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذا الكبرياء الحساسة، ويُشعر المُجادل أنَّ ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأنَّ الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونُصرة رأيه

---

(١) سورة مريم: ٤٧.

وهـزيمة الـرأي الآخـر، ولكـي يطـامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أنَّ الله هو الأعلم بمن ضلَّ عن سبيله والأعلم بالمهتدين فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك الله][1].

٣- حُسن الاستماع والفهم:

حُسن الاستـماع مـن المهـارات التربـوية التي يمكن أن تغرس في سـلوكيات الإنـسان منذ صغره فينشأ مستمعاً جيِّداً ثم محاوراً جيِّداً وهذه سمـة من سمات الأنبياء جسَّدها الرسول ﷺ وتعلَّمها أصحابه منه، ومن أبـرز المواقـف التربـوية الواضـحة في ذلـك تلـك المحاورة التي جرت بين رسـول الله ﷺ وعتـبة بن ربيعة فقد جلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: [يا ابـن أخـي إنَّـك مـنا حـيث علمـت مـن البسطة في العشيرة، والمكان من النسب، وإنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفهَّت به أحلامهـم، وعِبت به آلتهم، كفَّرتَ به مَن مضى مِن آبائهم، فاسمع منِّي أعـرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها]. فقال رسول الله ﷺ: (قُل يا أبا الولـيد أسمـع) فقـال لـه عتبة ما ذُكر بالتفصيل في كتب السيرة، وعندما انتهـى عتـبة مـن كلـه لم يـتحدَّث رسول الله ﷺ مباشرةً بل سأله: (أوقد فـرغتَ يـا أبـا الوليد)؟ قال: (نعم). قال: (فاسمع منِّي). قال فقرا آيات مـن سـورة فُـصِّلت حتى وصل إلى موضع السجدة فسجد ثم قال لعتبة: (قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذلك).

فالرسـول ﷺ يُعلِّمـنا دروسـاً كـثيرة مـن حـيث إعطـاء الفرصة للمُحاوِر حتى يفرغ، ثم الطل منه أن يضيف إلى حديثه إذا نسي شيئاً، ثم

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٢، ط السابعة ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

هـذا الأدب الـرفيع، والسلوك القويم، والذوق العالي في الأخذ والرد مما جعل محاوره يذهب إلى أصحابه بوجه غير الوجه الذي كان عليه.

ثم إننا نجد في قصة رسول الله ﷺ مع الأنصار الذين غضبوا حين لم تـشملهم غـنائم (حـنين) فهـو لم يعاتب زعيمهم سعد بن عبادة ولم يلُم الأنصار لأنهم غضبوا من قائدهم بل سأل سعداً: (فأين أنت من ذلك)؟ فيجيـبه بأمانة وصدق: [يا رسول الله ما أنا إلا من قومي]. ثم يدور ذلك الحـديث الإيمانـي الـرفيع والحـوار العقلـي العاطفـي الـذي ينتهي بقول الأنـصار: [رضينا برسول الله قَسَماً وحظاً]. فالرسول ﷺ يُعلِّمنا أنَّ على المـستمع أن يتفـرَّغ لمحدِّثـه تفرغاً كاملاً يشعر به، وأن يصغي إليه باهتمام وتمعُّـن، وأن يُركِّـز علـى فكـرته الـتي بنـى علـيها حديـثه دون المجادلة في التفاصـيل، وأن يحافظ على هدوئه وانفعالاته وردود الفكرة على وجهه، وأن لا يتسرَّع في إصدار حكم أو استنتاج نتيجة.

أمـا حُسن الفهـم فمـرتبط بحُسن الاسـتماع لأن فهـم كـل من المـتحاورين لبعـضهما يـؤدي إلى الوصـول إلى نقاط الاتفاق ويُقصِّر فترة الحـوار، ويلملم المسائل المتشابكة، ويُضيِّق مجال الخلاف وبخاصة إذا أبدى كـل مـنهما مـن المـشاعر والانفعـالات الإيجابـية مـا يجعل الطرف الآخر مطمئناً ومستريحاً، حُسن الفهم من المتحاورين يقتضي الاتفاق على دلالة المـصطلحات عـندهما وأن تكـون الكلمـات المـستعملة مفهـومة لـديهما وليست ضبابية أو قائمة أو تحمل دلالات مختلفة.

٤- تجنُّب جارح الكلام وفاحش القول:

من أدبيات الحوار هدوء النفس، وعفة اللسان، وطهارة القلب، وتجنُّب الفاحش من الكلام لأن رسول الله ﷺ لم يكن سبَّاباً ولا فاحشاً ولا لعَّاناً، وقديماً كان سلف علمائنا يرون أنَّ مجالس الحوار مجالس عِلم وعبادة تراعى فيها حقوق المجالس ووقارها وهيبتها، والرسول ﷺ يُخبر السيدة عائشة أن الله لا يُحبُّ الفاحش المتفحِّش، وأنَّ المؤمن لا يكون بذيء اللسان فاحش القول، كثير الطعان واللعان، فعلى المحاور أن ينتقي ألفاظه ويُحسن حديثه ويهدئ صوته، ويُركِّز على بيان الحق الذي ينشده بحجته ومنطقه دون انفعال أو غضب أو سخرية أو تهكُّم، وهذا ما طالب به ربُّ العزَّة موسى وهارون في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[١].

والمطلوب من المحاور أن يركِّز على الفكرة المطروحة بعرضها ونقدها وتفنيد ما فيها من أخطاء دون التعرُّض لصاحبها بالتهكُّم أو السخرية لأن ذلك يؤدي إلى فشل الحوار وفقدانه لهدفه، ولأن ذلك مخالف لأد القرآن الذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة طه: الآيتان ٤٣- ٤٤.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١١.

٢ - منهجية الحوار بالحكمة

إنَّ منهجية الحوار تقتضي الاتفاق على أمور وقواعد موضوعية تُمهِّد للغاية المرجوة من الحوار وقد ذكرنا في الأهداف العامة للحوار مراعاة الجوانب الإنسانية والخلقية والحضارية، لأن معرفة ماذا نريد من حوارنا؟ ولماذا نتحاور؟ وكيف ومتى نتحاور؟ هي التي توصلنا إلى ما نريد سهولةٍ ويُسر، ومن المناهج التي تقتضي مراعاتها في هذه المنهجية ما يلي:

١- تحديد مضمون الحوار وآليات إدارته

من حيث وضوح الهدف المراد الوصول سواء أكانت أهدافاً قريبة تؤدي إلى هدف أكبر، أم أهدافاً كبيرة يتوصَّل إليها عن طريق الحوار، وتحديد مضمون الحوار يتطلَّب تحديد جوانب الاتفاق والاختلاف في موضوع الحوار، لأنَّ التعرُّض لجوانب الاتفاق يعزز الثقة بين المتحاورين، ويُعمِّق دائرة المتفق عليه، ويُضيف دائرة الاختلاف، ويُوسِّع مجال التفاهم، والأخذ والرد فيما هو متفق عليه يؤدي إلى تجنُّب الزاطن الحادة في ما اختلف عليه ويفتح أبواباً واسعة تُقلل مساحة الخلاف، وتُهيئ القلوب إلى قبول الآخر، وتُوثِّق الصلة بين المتحاورين، لأن البدء بنقاط الخلاف قد يغلق باب الحوار منذ البداية ويُوسِّع فجوى الخلاف ويجعل كل واحد متمسكاً برأيه مدافعاً عنه باحثاً عن الغلبة والانتصار لفكره.

يقول (ديل كارنيجي) في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس): [دَعْ الطرف الآخر يوافق في البداية على الأمثلة التي تطرحها

عليه ويجيب بنعم، وحُل بينه وبين (لا) لأن كلمة (لا) عقبة كؤود يصعب التغلُّب عليها فمتى قال أحد: (لا) أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصراً لنفسه، إنَّ قول (لا) هو أكثر من مجرد التفوُّه بكلمة مكوَّنة من حرفين، إنَّ كيانه بغدده وأعصابه وعضلاته يتحفَّز ليناصره في اتجاهه إلى الرفض بينما لا يُكلِّف قول (نعم)، أي نشاط جسماني][1].

وتحديد مضمون الحوار يقتضي ترتيب سُلَّم الأولويات في الحوار فيما اتفق عليه أولاً وما اختلف عليه ثانياً بحيث يبدأ الحوار في جوان الخلاف من الأهم إلى المهم، من الكليات إلى الجزئيات، من الأصول إلى الفروع، لأن مناقشة الأمور الفرعية أو الجزئية يُشعِّب جوانب الحوار ويخرجه من أهدافه، ويُفقده التسلسل المنطقي فيصعُب التحكم في الجهد المبذول والوقت الضائع، ويُدخل المتحاورين في استطرادات ومتاهات تُفقد الحوار انضباطه والنقاش موضوعيته وأهدافه.

ومضامين الحوار في واقعنا الإسلامي المعاصر تشمل كل ما يترتب عليه مصلحة الأمة، وخدمة الإسلام من قضايا الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعلمية، والفكرية، وكل ما يتعلَّق بالأمور التي تفرضها علينا طبيعة العلاقات الدولية المتشابكة، والمصالح الحياتية المتبادلة.

وتحديد مضمون الحوار يقتضي أن نحدد أيضاً لغة هذا الحوار بحيث نُحسن إدارة الحوار إدارةً علمية منهجية دقيقة تساعد على التحوُّل والتقدُّم إلى منطلقات وآفاق جديدة في حياتنا ومستقبلنا السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والفكري، فكل موضوع يتعلق بحياة الأفراد

---

(1) ديل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس، ص ١٥٣.

والمجتمعات صالح ليكون موضوعاً للحوار بحيث يُعالج بطريقة شمولية استقرائية، يعالج الأسس النظرية ثم الجوانب العملية التطبيقية.

٢- العلم بموضع الحوار

العِلم هو الأساس في منهجية الحوار لأن إلمام المتحاورين بموضوع الحوار هو الذي يقود إلى الإيجابية والتفاهم، والقرآن الكريم يذم الذين يجادلون في أمور العقيدة بغير عِلم ولا دليل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[١] ويقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢]، كما عنَّف من يجادلون في أمور لا عِلم لهم بها ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣]، وهذا يقتضي أن لا يباشر الإنسان حواراً في موضوع لا يملك حوله المعلومات الكافية، والحقائق الثابتة، أو موضوع قد تكون معلوماته فيه ناقصة، أو أفكاره غير صحيحة، والعلم المقصود يقتضي أمرين متلازمين:

أحدهما: العِلم بشرع الله المطهَّر كتاباً وسُنةً، ويقتضي ذلك العِلم بمنهج السلف قولاً واعتقاداً وعملاً.

---

(١) سورة الحج: الآية ٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٦.

الثاني: العِلم بالواقع الذي يُراد تطبيق شرع الله عليه سواء كان ذلك الواقع سياسياً، أو اقتصادياً، أو اجتماعياً، أو دعوياً، أو غير ذلك[1].

وأهمية العِلم تقتضي من المُحاور أن يُعدَّ مادته العلمية التي يعتمد عليها وأن تكون اللغة التي يُعبِّر بها سليمة واضحة مبيَّنة، وأن يتحلَّى بالبصيرة التي هي صنو العلم ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

فالعلم بالقضية المطروحة بحججها، وبراهينها، واحتمالاتها، وظروفها ومُلابساتها هي الأدوات التي تعامل بها المُحاور، وينقذ ويُخطئ، ويتصدى لحجج محاوره بالحسنى، وهذا العِلم لا يتأتى لمن لم يطلع على آراء العلماء والمختصين فيما قالوا وكتبوا، ومَن لم يكن عالماً في مسائل الدين بالعلوم التي تُعين على المعرفة، وتعصم من الخطأ كعلوم القرآن وما يتعلق بها من تفاسير، وأحكام، وعلوم الحديث وما يتعلق بها من شروح، وشروط، وآداب، ثم قبل ذلك كله أن يكون المحاور العالم ذا بصيرة ومعرفة بالواقع الذي يعيشه، والظرف الذي يتحدَّث عنه، والنفس الإنسانية التي يخاطبها، والمعطيات الزمانية والمكانية، والاحتمالات القريبة والبعيدة، والمتغيرات في مجال الحياة والعلوم، وهذا النوع من العِلم هو الذي يضمن للحوار الإيجابية والوضوح والوصول إلى الهدف، ويُحصِّنه من الانفعالات والتداعيات التي تصاحب قلة العلم، ووهن الحُجة، وإفلاس الفِكر، وضبابية الرؤية.

---

(1) أحمد عبدالرحمن الضوبان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص ٤٤، ط أولى ١٤١٣ هـ، دار الوطن الرياض.

(2) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

٣- الاعتراف بالخطأ وعدم التعصُّب

الإنـسان بـشر يُخطـئ ويُصيب والرسول ﷺ يقول: (كُلُّ بني آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التوَّابون) والعصمة لم تكن إلا لأنبياء الله، فالإنسان مُعـرَّض للخطـأ، فـإذا تبيَّن له الخطأ كان الرجوع إلى الحق فضيلة هذا ما أوصـى بـه سـيدنا عمر ابن الخطاب أبا موسى الأشعري في رسالته له في القـضاء حـيث قاله له: [ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيـك، فهّديتَ فيه لرشدك، أن تراجع فيه الحق فإنَّ قديمٌ لا يُبطلهُ شيء، ومراجعة الحق خيّر من التمادي في الباطل][1]. والتسليم بالخطأ يحتاج إلى تربية النفس عليه ومجاهدة لها، وإلى شجاعة أدبية، وقوة نفسية، لأن الذي لم يُعوِّد نفسه على الإقرار بالخطأ يصعُب عليه أن يفعل ذلك وبخاصة أمام الآخـرين لأنـه يظـن في ذلـك فـشلاً وضـعفاً، وبما أنَّ المُحاور يهدف إلى الوصـول إلى الحـق فلـيس لـه أن يتعصَّب لرأيه، أو يتحيَّز لفئة، أو ينتصر لشخص، لأن التعصُّب في هذه الحالة نوع من الرفض للحق وقبوله.

والـتفكير الموضوعي يجعل المرء يعترف بأخطائه وسلبياته، ويعمل على إبراز إيجابيات وأماكن صوابه، فليس بالضرورة أن يكون الكلام كله خطـأ ثـم إنَّ هـذه الـصفة تُكسِب صـاحبها احترام الآخرين وتقديرهم، والـثقة فـيه وفيما يطرح من آراء، بينما يُفقِد التعصُّب للرأي والاعتزاز به الإنـسان التقديـر والاحترام، فالكلمة أمانة ومسؤولية، وأداء الأمانة على الـوجه الـصحيح مـسؤولية لـمن يحمـل أمانـة الكلمـة سـعياً للحـق، لأن التعـصُّب مظهـر من مظاهر ضعف الإنسان أمام نفسه، وإحساسٌ خاطئ

---

(١) اعلاه.

بأنه إذا اعترف بخطئه يُنقص قدر نفسه، والأمر عكس ذلك لأن الاعتراف بالخطأ فضيلة، ودليل على ثقة الإنسان بنفسه واحترامه لقواعد الحوار وأدبياته، ولا يخلو الأمر من قوة الإيمان وتغلُّب على نوازع النفس وحظوظها، وإنكارٌ للذات وفي ذلك يقول الإمام الشوكاني- رحمه الله-: [مِن آفات آفات التعصُّب الماحقة لبركة العلم، أن يكون طالب العِلم قد قال بقولٍ في مسألة كما يصدر ممن يُفتي، أو يُصنِّف، أو يُناظر غيره ويشتهر ذلك القول عنه فإنه يصعُب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه، وإن عَلِم أنه الحق، وتبيَّن له فساد ما قاله، ولا سبب لهذا الاستصعاب إلا تأثير الدنيا على الدين، فإنه قد يُسوِّل له الشيطان، أو النفس الأمَّارة أنَّ ذلك يُنقصه، ويحُطُّ من رتبته، ويخدش في تحقيقه، ويغُضُّ من رئاسته، وهذا تخيُّلٌ مختل، وتسويل باطل، فإنَّ الرجوع إلى الحق يُوجب له من الجلالة والنبالة، وحُسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له وللإزراء عليه، والاستصغار لشأنه، فإنَّ منهج الحق واضح المنار يفهمه أهل العِلم ويعرفون براهينه ولا سيما عند المناظرة فإذا زاغ زائغ تعصُّباً لقولٍ قد قاله، أو رأي رآه، فإنه لا محالة يكون عند مَن يطلع على ذلك من أهل العِلم أحد رجلين: إما متعصِّب مُجادل مكابر، إن كان له من الفهم والعِلم ما يميِّز به الصواب، أو جاهلٌ فاسد الفهم باطل التصوُّر، إن لم يكن له من العِلم ما يتوصَّل به إلى معرفة بطلان ما صمَّم عليه وجادل عنه، وكلا هذين المطعنين فيه غاية الشَّيْن][1].

---

(1) الإمام الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأرب، ص ٨٨ -٨٩، نقلاً عن أحمد بن عبدالرحمن الضويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص ٨٤.

إنَّ الآيـة القـرآنية ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]، تقـرر مـبدأ نـبذ العـنف والتعـصُّب والكـراهية لـيس للمـسلمين بـل لغـير المسلمين من الناس عامة، ولم تكتفِ الآية بذلك بل تطالـب المـسلمين أن يعاملـوهم بالقـسط والعـدل، وأن يـبروهم بالمعنـى اللغـوي والاصـطلاحي للبـر الـذي عـرَّفه رسـول الله ﷺ بأنـه الخُلـقُ، والإحسان يشمل كل معاني الخير ومظاهره.

---

(1) سورة الممتحنة: الآية ٨.

الفصل التّاسع

منطلقات الحوار

١- منطلقات الحوار وعوائقه.

٢- عوائق الحوار بالحكمة.

الفصل التّاسع

١ - منطلقات الحوار بالحكمة

١- الإيمان بالله ورسوله

يستلزم هذا الإيمان تقوى الله والتواضع، والإحساس بعزة المسلم، وثقته في ربه بحيث يكون انعكاس هذا الإيمان ثباتاً على الحق ومواجهةً للباطل وإحساساً بعزة النفس واستعلاء المؤمن بإيمانه فهو دائماً حُر النفس، مستقل الإرادة، مُهاب الجانب، يرفض الذّلة ويتحدى الصعاب، ويرفض الهوان في نفسه أو دينه، ولا بد أن يترجم هذا الإيمان في عمل لأنه لا قيمة للإيمان بلا عمل يترجمه في الحياة وينشئه في الوجود والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[1]، وفي هذه الآية يقول الشهيد سيد قطب- رحمه الله-: [هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان ... وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء ولا يغيب، ولا بد من الإيمان لتكون للعمل لصالح قيمته بل ليثبت للعمل الصالح وجوده، ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته، بل لتثبت للإيمان حقيقته، إن الإيمان هو قاعدة الحياة، لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود، والرابطة التي تشدُّ الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه والواحد وتردَّه إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء، والعمل الصالح هو هذا البناء فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته، والعمل

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٤.

الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير، والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تمَّ وجودها في الضمير تحوَّلت إلى عملٍ صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المُضْمَر والثمرة اليانعة الجذور الممتدة في الأعماق، ومن ثمَّ يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء فلا جزاء على إيمان عاطل خامد، لا يعمل ولا يثمر، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان والعمل الطيِّب الذي لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم ولا موصول بناموس مُطرد، وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح لأنه وسيلة البناء في هذا الكون، ووسيلة الكمال الذي قدَّره الله لهذه الحياة] (1).

وارتباط الإيمان بالعمل واردة في كثير من آيات القرآن مثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(2).

ولأهيمة الإيمان بالله وتأثيره على فكر الإنسان وسلوكه وحياته كانت وصية الله للإنسان دائماً مُصدَّرةً بالنداء الإلهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فالإيمان هو الذي يغيِّر الإنسان وينشئه نشأة جديدة، ويُفجِّر

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٥٦٣.

(2) سورة الأنفال: الآيات ٢- ٤.

الينابيع الكامنة في نفس إذا ذاق حلاوة الإيمان واطمأنت إليه نفسه، وتفاعلت به حركته لأنه نور، نورٌ في القلب، ونورٌ في الجوارح، ونورٌ في الحواس، نورٌ يكشف حقائق الأشياء والقِيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد، فالمؤمن ينظر بهذا النور- نور الله- فيرى الحقائق ويتعامل معها ولا يتخبط في طريقه ولا يتعثر في خطواته، والإيمان بصر يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخجلة ويمضي صاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وعلى اطمئنان، والإيمان ظِلٌ ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظِلٌ من هاجرة الشكل والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل، والإيمان حياة القلوب، والمشاعر حياةٌ في القصد والاتجاه كما أنه حركة بانية مثمرة لا خمود فيها، ولا همود، ولا عبث فيها، ولا ضياع[(١)]، وعملاً ونوراً في القلب يضيئه ويحركه، ونوراً في العقل يوظف طاقاته ويترجمها عملاً دائماً دؤوباً.

- فالإيمان هو أساس كل خير وبركة في الدنيا ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[(٢)].
- هو أساس التمكين للأمة في الأرض ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص ٥٦٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

ﭐلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾[١].

- الاستعلاء صفة للمؤمنين في الأرض ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٢].
- الإيمان الصادق ينتج عنه عمل صالح ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾[٣]، لأن الإيمان حقيقة إيجابية تسعى لتحقيق ذاتها في صورة عمل نافع صالح فهو ضد السكون والخمو.

إنه وسيلة الحياة الطبيعية في الدنيا والجزاء الحسن في الآخر ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٤]، وذكر ابن كثير أنها تكون على عدة وجوه منها الرزق الحلال الطيب كما قال سيِّدنا علي ﷺ أو الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، والعمل بالطاعة والانشراح لها كما قال الضَّحاك، ويُعلِّق ابن كثير على ذلك كله بقوله: [والصحيح أنَّ الحياة الطيبة تشمل هذا كله][٥]. والعدل والإحسان، وتغيب مظاهر الأثرة

(١) سورة النور: الآية ٥٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٩.
(٤) سورة النحل: الآية ٩٧.
(٥) تفسير ابن كثير، ٢/ ٥٨٦.

والأنانية والظلم والعدوان، ويرتفع في المجتمع المعاني الأخلاقية والعلاقات الحميمة، والأمن والطمأنينة والسلام والحُب.

٢- العِلم:

آفاق العِلم في الإسلام لا حدود لها وما من دين حثَّ على العلم وطلبه وجعله عبادة مثل الإسلام، الذي كانت أولى آيات الوحي فيه دعوة إلى العِلم والتعلُّم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، والقرآن مليء الآيات التي ترفع من شأن العلم والعلماء وتحثُّ على طلبه وتحصيله وهو الشيء الوحيد الذي طُلب من رسول الله أن يتزوَّد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[2]، والعلم الذي يحضُّ عليه الإسلام هو علم الدنيا والآخرة، العِلم الذي يرتفع بصاحبه ويسمو بروحه، ويُعرِّفه حق الله وحق عباده عليه، ولم يُفرِّق الإسلام بين العلوم المختلفة من جيولوجيا، وفلك، وحيوان وغير ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ

(١) سورة العلق: الآيات ١- ٥.

(٢) سورة طه: الآية ١١٤.

أَلْوَانُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

والعلـم لا خـير فـيه إن لم يهدِ الإنسان إلى الحقيقة العظمى وهي معـرفة الله سـبحانه وتعـالى، فمعـرفة خـصائص الكـون وأسرار الوجود وطـبائع الأشـياء لا قـيمة لهـا إن أغفـل هذا العلم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فالحضارات التي لم تتعدَ معارفها إلا المادة وظواهرها دون أن تـنفُذ إلى الحقائـق والمعانـي هـي الـتي قـال عنها القرآن الكريم ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2].

والإمـام أبـو بكـر الآجـري يقـول: [فإنَّ الله عزَّ وجلَّ وتقدَّست أسمـاؤه اخـتص مِـن خَلقـهِ مَـن أحـبَّ فتفضل عليهم، فعلَّمهم الكتاب والحكم، وفقهَّهم في الدين، وعلَّمهم التأويل، وفضَّلهم على سائر المؤمنين وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعِلم وزيَّنهم بالحِلم][3].

إنَّ العِلـم هـو وسـيلة كـل تقـدم وتطـور في مجالات الحياة كلها، سياسـية، أو اجتماعـية، أو ثقافـية، وفي تـراثنا الـثقافي والحضاري نجد أن العَـالِم المـسلم فقـيهاً كـان، أو طبيباً، أو مهندساً، أو غير ذلك كان يُمثِّل الـصفوة في المجـتمع المـسلم وكان الخلفاء والأمراء يعتمدون على العلماء يستـشيرونهم ويـصطفونهم ويوقـرونهم، وكان العَالِم معتزاً بعلمه مترفعاً

---

(١) سورة فاطر: الآيتان ٢٧- ٢٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٨.

(٣) أبو بكر الآجري، أخلاق العلماء، ص ١٥.

عن الجاه والسلطان ينشد الحاكم وُدَّه ويسعى إليه أينما كان لأن الحاكم كان يعتمد في قراراته على رأي العَالِم الذي جعل علمه لله وليس للدنيا، وبما أن العِلم هو وسيلة بناء الحضارات واستمرارها فإنه قد يكون سبباً في فنائها وضياعها إذا لم يكن العِلم مرتبطاً بالله خالق الكون والحياة، والله سبحانه وتعالى في أولى آيات الوحي ربط القراءة بخالق الكون والوجود ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]، فقراءة الكون واكتشاف أسراره وقوانينه يجب أن يكون في أحضان الإيمان بالرب الخالق حتى إذا ما أحسن الإنسان قراءة الكون وتعرَّف على قوانينه، فإنه يوظف هذه القوانين العلمية توظيفاً إيمانياً يسعد بها الإنسان ولا يشقيه فيكون العلم مصدر أمن وأمان للإنسان وليس مصدر خوف وشقاء، وهذا هو الفرق بين العِلم المؤمن والعلم الكافر[2].

والعِلم سبيل من سبل النهضة والرقي كذلك يقول الله سبحانه ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾[3]، ويقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾[4]، والعِلم الذي نقصده هو عِلمٌ يختلف عن المفهوم العلمي في المفهوم الإسلامي الذي يوضحه المُفكّر الفرنسي روجيه جاوردي حيث يقول: [إن العلم العربي الإسلامي على عكس مفهومنا الوضعي لا يفصل بين

---

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) د. محمد إبراهيم مبروك وآخرين، الإسلام والعولمة، (٤٥).

(٣) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨.

العلم والحكمة، بمعنى أنه لا يغفل أبداً عن المعنى والغاية، ولا يفصل بين تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض وتساعد على اكتشاف القوانين التي تحكمها وبين ربط هذه العلاقات مع الكل الذي يكسبها معنىً فهو عِلم دنيوي لعلاقته مع الأشياء وهو مقدس- حتى بأبسط عناصره- لصلته بالخالق، وإن العلم يتحول إلى عملية إذا تخلى عن المعنى والسمو الروحي كما تؤدي التثنية إلى تقنوقراطية مادام التطور الكمي للعمل والتقنية قد أصبح غايةً في حدِّ ذاته][1]. ثم يقول: [إنَّ الإسلام لا يُفرِّق بين العقيدة والعِلم والتقنية، كما لا يُفرِّق بين البحث عن القوانين والأسباب والبحث والغايات والمعاني... ولا بين القوة التي توفرها لها التقنية للسيطرة على الأشياء ووجوب استعمالها كوسيلة لعبادة الخالق ... كما أن الإسلام لا يُفرِّق بين الإيمان والاقتصاد والإيمان في السياسة بل على العكس يُوحِّد بينهما في بنية واحدة على أساس إرجاع كل مَلِك وكل مقدرة كما هو الشأن بالنسبة لكل عِلم إلى الله الواحد الأحد][2].

٣- العدل:

علاقة الإنسان بربه هي علاقة العبودية، وعلاقته بالكون علاقة تسخير أما علاقته بعباده فهي علاقة العدل والإحسان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

---

(١) روجيه جارودي، من الإيمان إلى الإلحاد، إعداد: رامي كلاوي، ص ١٤٠- ١٤١، ط ٢، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤١.

﴿وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فمن مبادئ الحوار وشروطه أن نُحسن إلى مَن يحاورنا وأن نعدل في علاقتنا معه، لأن العدل قاعدة حياتية إلى أن تقوم الساعة، فهو أساس المُلك وأساس الحوار النافع الذي يؤدي إلى نتيجة، ويترتب على هذا العدل أن نُقرَّ بالحقيقة مهما كانت، وأن نعطي كل ذي فضلٍ فضله، وأن نساوي بين الجميع، وعن الآية السابقة يقول الشهيد سيِّد قطب- رحمه الله- في معرض حديثه عن القرآن الكريم: [جاء (بالعدل) الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالوُد والبُغض، ولا تتبدَّل مجاراةً للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيالٍ واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع، وإلى جوار العدل (الإحسان) الذي يُلطِّف من حدة العدل الصارم الجازم ويدعُ الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لوُدٍّ القلوب، وشفاءً لِغلٍّ الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليُداوي جُرحاً أو يكسب فضلاً، والإحسان أوسع مدلولاً فكل عمل طيِّب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بالجماعة وعلاقته بالبشر جميعاً][2].

إنَّنا إذا نظرنا إلى دواعي الرقي والنهوض في الحضارات والثقافات نجدها مرتبطة بالعدل كما أن دواعي السقوط والانحدار مرتبطة

(1) سورة النحل: الآية ٩٠.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٤.

بالظُلم وفقدان العدل، فالإنسان يسقط وتسقط معه حضارته حينما يسود الظُلم ويطغى الجهل، وتنتشر الموبقات والفواحش، بينما تنهض المجتمعات ويرقى الإنسان حينما يسود العدل، وترتفع راية العِلم، وتعمُّ الفضيلة، والقرآن يحدثنا عن مقومات النهوض وسُبله حين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[1] وقوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]، ويقول: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، وإذا كانت هذه هي مقومات النهوض فإنَّ مقومات السقوط والتدهور هي الظُلم قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[6].

---

(1) سورة النحل: الآية ٩٠.

(2) سورة المائدة: الآية ٨.

(3) سورة النحل: الآية ٧٦.

(4) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(5) سورة: البقرة: الآية ٥٩.

(6) سورة النساء: الآية ١٦٠.

٤- حُسن الخُلُق:

بمعنى التأسي برسول الله ﷺ وفي خُلُقه ورفقه، وإيمانه وجهاده، وحِلمه وكرمه، وعبادته وتقواه، لأنَّ الرسول ﷺ كان خُلُقه القرآن، يُحسن إلى الناس، ويحاورهم بالتي هي أحسن، ويُشجِّع أصحابه أن يكونوا مثله بقوله: (إنَّ أقربكم منِّي مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي يوم القيامة، الثرثارون والمستشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[١].

فالرسول ﷺ هو المثل الأعظم في السلوك والتطبيق العملي لمنهج القرآن وتعاليمه، وغاية الأخلاق الاستقامة على أمر الله، وتغلي الفرد لحاجة الناس على حاجته بالإيثار فإذا تعارضت المصلحتان ضحَّى الفرد بنفسه في سبيل الجماعة، والتوسط والاعتدال في الإنفاق، وممارسة الحلال دون إفراط أو تفريط، ومن شأن الأخلاق أن تُغيِّر موروث الإنسان وأثر بيئته، وأن تمكّنه بالإرادة والعزم والتقوى أن يتحوَّل عن الطمع والبُخل، والشُح والكِبْر، والإسراف، إلى السماحة والعطاء، والتواضح والبذل والرحمة[٢]. حُسن الخُلُق في الإسلام التزام ومسؤولية، لأن الالتزام هو السبيل إلى وضع الحق مكانه، وإقامة العدل، ومصدر هذا الالتزام ما أودعه الله في البشر من معرفة الخير والشَّر والفضيلة والرذيلة، والإيمان والكفر حيث قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن. صحيح الترمذي للألباني ح ١٦٤٢.
(٢) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٢٩٨.
(٣) سورة الإنسان: الآية ٣.
(٤) سورة البلد: الآية ١٠.

وَتَقْوَاهَا﴾[1]، ومع أن النفس البشرية بطبيعتها آمرة بالسوء، نزّاعة للشرّ إلا أنّ التربية الخُلُقية هي التي تجعله يتغلّب على نوازعها ويكبح شهواتها، وبالإيمان والتقوى تتربّى النفس الإنسانية، وبالعقل يسيطر الفرد على قواه المختلفة ويوقظ أحاسيسه ومشاعره فيُحسن وزن الأمور بميزانها الصحيح، ويواجه أخطار الحياة ونوازع النفس، فالنفس الإنسانية تمتلك عن طريق التربية القدرة على تحمُّل المشاق ومسؤوليات الحياة وتكاليف الدين، الأمر الذي يعصمه من السقوط والانحراف، لأن الإسلام يدعو دائماً إلى تربية الإرادة، ومجاهدة الواقع الخُلُقي المنحرف عن منهج الله ومفهوم الأخلاق، وضبط نوازع النفس ودوافعها، والتحكُّم في الشهوات والأهواء، لأن الدين هو مصدر الأخلاق وليس المجتمع أو العادات أو التقاليد، والقِيم الخُلُقية في الإسلام ثابتة الموازين لأنها قِيم فطرية، والحقائق حقائق مطلقة ثابتة وليست نسبية أو متطورة، فالأخلاق في الإسلام سموٌّ بالنفس إلى الكمال، وتحررٌ من أخطاء البيئة وآثار الوراثة، وقيود العادات والتقاليد فالضوابط الأخلاقية مقررات أساسية في حياة الإنسان وحركته وسعيه، وهي طابع واضح في كل ما يقصد إليه الإنسان وما يدع، ذلك أنّ الأخلاق في الإسلام ترتبط بالدين ارتباط الجزء بالكل وتكون بذلك ثابتة بثباته فهي غير قابلة للتغيير تبعاً لمرور الزمن أو انحراف المجتمع أو نزوات الفرد، ومصدرها هو مصدر الدين ومنبعها هو منبعه وهو الله سبحانه وتعالى[2].

---

(1) سورة الشمس: الآيتان ٧- ٨.

(2) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٢٣٦.

٢ - عوائق الحوار بالحكمة

يقـول الإمام الغزالي: [اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعية لقصد الغلـبة والإفحـام وإظهار الفضل والشرف، والتشديق عند الناس وقصد المـباهاة والممـاراة، واسـتمالة وجـوه الـناس، هـي منـبع جمـيع الأخـلاق المذمومة عند الله، المحمود عند عدو الله إبليس][١].

وقـد حـدد الغزالـي آفات المناظرة- التي تمثِّل عوائق الحوار الجيِّد الـنـزيه المبتغـي وجـه الله والحقيقة- في جوانب نذكرها بتصرُّف واختصار فيما يلي:

١- الحسد:

لا يـنفك المُناظـر عـن الحـسد فإنه تارةً يَغلب وتارةً يُغلب، وتارةً يُحمـد كلامه وتارةً أُخرى يُحمد كلام غيره، فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكره قوة العِلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً، وأقوى نظراً فلا بد أن يحسده ويُحبُّ زوال النِعم وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه[٢].

٢- التكبُّر والتعالي على الناس:

والـبعض يدعـي يتعاليه وتكبُّره بعملٍ على صيانة عِز العِلم، وأن المـؤمن منهـي عـن إذلال نفـسه، والتكبُّـر مـن ممقوت عند الله الذي ذمَّه وأثنـى علـى التواضـع الـذي هـو نـتاج العِلم وثمرته، والتكبُّر والتعالي

---

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٨.

يقلـلان من قد المُحاوِر ولو كان مُصيباً لأنهما صفتان منفرتان مستفزتان، ولـو كـان الحـق مـع صـاحبهما لأن الكِبر مدعاةٌ لردِّ الحقِّ وبخس حقوق الناس.

٣- تزكية النفس:

فالمُحـاوِر لا يخلـو مـن الثـناء علـى نفسه والقوة والغلبة والتفوق علـى الأقـران والله سـبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1] فحـديث المُحـاوِر عـن العلوم التي يتقنها والفنون التي برع فيها، والجوائز التي حصل عليها وغير ذلك من العيوب المذمومة والعميقة لإدارة حوار جيِّد مفيد مع الآخرين.

٤- الكذب وتتبُّع عيوب الآخرين:

بعـض المحـاورين لا يحفظ لسانه من التعرُّض لمحاوريهم ووصمهم بالجهـل وقلـة الفهـم والغـباء، كمـا أنـه يتتبَّع عورات محاوريه فيُغيِّر عن أحـواله في صـباه وبـين أهلـه، وماضـيه وعيوبه، ويحتفظ بهذه المعلومات ليفـضحه بهـا إذا تفـوَّق علـيه أو أحـسَّ بقـبول الناس له أكثر منه، فتتبُّع العـورات والعـيوب ضربٌ من التجسس المذموم وسلاح يدل على سوء الخُلُق وفساد السريرة لمن يستخدمها ضد مُحاوره، وهذا النوع الذي يفرح لمـا يغـم الـناس ويكـدِّرهم، ويـسؤه مـا يـسرهم ويفـرحهم لأنه لا يحبُّ لإخـوانه مـا يحبُّ لنفسه، والإمام الشافعي يقول: [العِلم بين أهل الفضل

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

والعقل رَحِمٌ متصل]. وكان علماء السلف مع اختلاف مواقعهم يتآخون ويتناصرون في السَّراء والضَّراء.

٥- النِّفاق:

وهو معروف ومذموم فالمحاور الذي يُظهر غير ما يُبطن، عائق من عوائق الحوار فالبعض يُظهر التودد باللسان، والتقرُّب بالعواطف والكلمات والكل يعلم أن ذلك منه كذبٌ وزور، ونفاق وفجور، لأنهم متوددون بألسنتهم متباغضون بقلوبهم، وقد روى الطبراني من حديث سليمان بإسناد ضعيف أنه ﷺ قال: (إذا تعلَّم الناس العِلم وتركوا العمل، وتحَّابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله عند ذلك فأصمَّهم وأعمى أبصارهم)[١].

وقد قال سيدنا عمر ﷺ: [إنَّ أخوف ما أخاف على هذه الأُمة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل].

٦- الانتصار للنفس:

الهدف من الحوار دائماً الوصول إلى الحق وظهوره على يد أحد المتحاورين، لأن هدف كلٍّ منهما التقرُّب إلى الله والانقياد للحق، فإذا كان هدف أيٍّ من المتحاورين الانتصار على الآخر والتباهي بعلمه وقدراته على الغلبة والانتصار كان ذلك عائقاً لُمحاورةٍ جيِّدة تقوم على الإلفة والمحبة، والتواضع وحُسن القصد، وطلب مرضاة الله سبحانه

---

(١) محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٧٣.

وتعـالى، وتحقـيق الحـق، وكـشف الباطل والزيف، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي- رحمه الله-: [ما ناظرتُ أحداً قط فأحببتُ أن يُخطئ، وقال: ما كلَّمتُ أحداً قط إلا أحببتُ أن يُوفق ويُسدد ويُعان ويكون عليه رعاية من الله تعـالى وحفـظ، وما كلَّمتُ أحداً قط وأنا أُبالي أن يُبيِّن الله الحقَّ على لساني أو لسانه، وقال: ما أوردتُ الحق والحُجة على أحد فقبلها منِّي، إلاَّ هبـته واعـتقدتُ محبته، ولا كابرني أحدٌ على الحقِّ ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته][1].

والانتـصار للـنفس مـرتبط بآفـة العِلـم والتكبُّـر ومُـنافٍ لصفتي الخـشوع والتواضـع وهمـا مـن سمات العلماء الذين يعملون للحق وبه يقولون، وفي ذلك يقول الإمام الآجري: [فالمؤمن العِالم العاقل يخاف على ديـنه مـن الجدل والمراء، فإن قال قائل فما يصنع في عِلمٍ قد أشكل عليه؟ قيل له: إذا كان كذلك وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه قصد إلى عِالمٍ ممـن يعلم أنه يريد بعلمه وجه الله ممن يرتضي علمه وفهمه وعقله، فذاكر مذاكـرة مـن يطلـب الفائـدة وأُعلمـه أنَّ مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحـق، وليـست مناظـرة مُغالـب، ثـم ألزم نفسه الإنصاف له في مناظرته وذلـك واجـب علـيه أن يُحـبَّ صـواب مُناظِـره ويكـره خطأه كما يحبُّ لنفـسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ويُعلِمه أيضاً إن كان مرادك في مناظرتي أن أخطـئ الحـق وتكون أنت المصيب فإنَّ هذا حرام علينا فعله، لأن هذا خُلُـقٌ لا يرضـاه الله مـنها، وواجـب علـينا أن نـتوب من هذا، فإن قال: فكـيف نتـناظ؟ قـيل له: مناصحةً، فإن قال: كيف المناصحة؟ أقول له: لمَّا كانـت مـسألة فـيما بيـننا أقـول أنـا إنهـا حـلال، وتقول أنت إنها حرام،

---

(1) المصدر السابق، ١/ ٣٨.

فحُكمـنا جميعاً أن نتكلم فيها كلام يطلب السلامة مرادي أن ينكشف لي علـى لسانك الحق فتصير إلى قولي ما يوافق الكتاب والسُنة فإن كان هذا مـرادنا، رجـوتُ أن تُحمـد عـواقب هـذه المناظرة، وتُوفّق للصواب، ولا يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب][1].

ويقـول عن هذا النوع من المحاورين الذين لا هدف لهم في إظهار الحـق بل في الانتصار لنفوسهـم المريضة وأهوائهم المسيطرة عليهم، يقول: [فانظر إلى مُناظِري زمانك اليوم، كيف يَسْودُّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق علـى لـسان خـصمه، وكـيف يخجـل به، وكيف يجهد في مجاحدته بأقصى قدرتـه، وكيف يذم مَن أفحمه طُول عمره، ثم لا يستحي مِن تشبيه نفسه بالصحابة ﷺ في تعاونهـم على النظر في الحقّ][2].

---

(1) أبـو بكـر محمـد بـن الحسين الآجـري، أخـلاق العلمـاء، ص ٦٠- ٦١، نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء السعودية ١٣٩٨هـ- ١٩٨٧م.

(2) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ص ٥٧.

الفصل العاشر

ثقافة الحوار وخصائصه

١- ثقافة الحوار.

٢- خصائص الحوار.

الفصل العاشر

ثقافة الحوار

الثقافة الإسلامية ثقافة حوار ثقافة وتعايش، وثقافة تفاعل لأنها أخذت من الشعوب ثقافاتها وصهرتها في حصيلة كان نتاجها الحضارة الإسلامية التي تميَّزت بالحيوية، والقوة، والتطور، والإبداع وأصبحت خاصة التفاعل الحضاري سمة من سمات الثقافة الإسلامية في مفهومها الواسع المرتبط بصقل النفس وتهذيبها، وبالمنطق والذكاء على المستوى الفردي، وبالرقي الفكري والأدب الاجتماعي على مستوى الأمة، فالثقافة كما يُعرِّفها الأستاذ أنور الجندي: [نظرية في السلوك بها يرسم طريقه في الحياة إجمالاً فيما يتمثَّل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعبٌ من الشعوب وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تتميَّز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقِيم، واللغة، والمبادئ، والسلوك، و المقدسات، والقوانين والتجارب، وفي الجُملة فإنَّ الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمَّن المعارف والعقائد، والفنون والأخلاق، والقوانين والعادات] (1).

والإسلام برسالته العالمية دعوةٌ للحوار الثقافي المؤدي إلى التفاعل الحضاري والتواصل الإنساني، فالإسلام بخاصيته التسامحية دعا إلى الارتباط الثقافي بالشعوب التي دخلت الإسلام وحقق مبدأ التسامح كأساس للتفاعل الحضاري والتواصل الإنساني، بل إنَّ سماحة الإسلام

---

(1) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٥٢٤، المكتب الإسلامي بيروت، ١٩٨٠م.

جعلت لكل مَن يريد الدخول في الإسلام الاحتفاظ بثقافته والتميُّز بها، وجعل له الحرية في ممارسة شعائره الدينية دون إكراه أو قهر، فهذه ثقافة حوار متصل بحثاً عن الحق، ونشراً للخير، وتسامحاً إنسانياً يحقق العدل والسلام.

وتتميّز هذه الثقافة بسمات وخصائص تُميزها عن غيرها من الثقافات لأنها جعلت المصدر الذي تستمد منه مقوماتها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وآراء العلماء المجتهدين، والتراث العربي، فالمسلم يعتمد في الجانب المعرفي والقيمي والوجودي على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية بما حملا من مبادئ دينية وسلوكيات خُلُقية، ونظام اجتماعي، وحقائق وأفكار تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ومستجيبة لمتطلبات العصر ومستجدات الحياة، وارتباط هذه الثقافة بهذه المصادر جعلها توازن بين العقل والعاطفة دون وجود انفصام بينهما.

والثقافة الإسلامية كما يقول الأستاذ أنور الجندي: [عربية في لغتها إسلامية ي جذورها إنسانية في أهدافها، وهي كشأن كل ثقافة تتكون من مقومات أساسية فكرية وروحية أهمها العقيدة وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ، والتراث، ووحدة العقلية والمزاج النفسي، وقد تأكد أنه لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات أن تنمو إلاَّ إذا كانت ذات صلة دين من الأديان هو الذي يكسب الحياة الاجتماعية معناها ويمدها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها][1].

ويقول: [وارتباط الثقافة الإسلامية بالتراث لا يعني إعادة الماضي أو تقليده بل اعتبار الماضي أساساً لفهم الحاضر واستشراف المستقبل

---

(1) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٣٥٢.

والحركة والمرونة في إطار القِيم الثابتة، والتوازن الذي جاء به الدين بين الروح والمادة، والتكامل ين الجسم والنفس، ووحدة العقلية والمزاج النفسي، وتتمثّل أبرز معالم هذه الثقافة في التوحيد التكامل الأخلاقي، استقلال الطابع، التوازن بين الروحي والمادي والآخرة، الحرية المنضبطة، القدرة على التطور والقدرة على التصحيح، الطابع الإنساني مفهوم التقدم، الوسيطة][1]، ومن خصائص الحوار ما يلي:

١- الانفتاح:

استوعبت الثقافة الإسلامية ثقافات كل الأمم التي انضوت تحت لوائها من أصحاب الديانات والمِلل والنِحل التي انصهرت في الكيان العربي الإسلامي وانتشرت هذه الثقافة التي تكيفت معها الثقافة المحلية، فاستوعبت ثقافتها وتقاليدها وعاداتها التي انسجمت في سياق الثقافة الإسلامية، التي أصبحت بفضل استيعابها لثقافات الأجناس، وأهل الديانات الأخرى، أصبحت ثقافة منفتحة الأبواب، متعددة الروافد، متنوعة المصادر، غنية المحتويات والمضامين كل ذلك مع الاحتفاظ بأصول هذه الثقافة وثوابتها في مجال القِيم والعقائد، والوسائل والمقاصد، وهي ثقافة تتميز بالحركة والتجديد، فهي مع محافظتها على الثوابت تضيف الجديد وتستوعب الحديث، وتجدد الجوانب الفكرية، والمعنوية، والروحية.

ولعل مصدر هذا الانفتاح والثراء والقوة مستمدة من مبادئ الإسلام الداعية إلى التعارف مع الأمم الأخرى، والتعاون والحث على النظر في مجال الكون المنظور، والتماس العِلم الإنساني الذي يُعمِّق معاني

---

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٥٣٤.

الحرية والانفتاح والعطاء الثقافي غير المحدود، وهذه الخاصية الثقافية جعلت هذه الثقافة متشعبة ومتنوعة لأنها تفاعلت وأخذت من ثقافات الأمم التي انضوت تحت لوائها ولم تعاملها باعتبارها ثقافات أمم منهزمة أو حضارات بائدة، مما جعلها ترتبط بالمنابع التي أخذت منها تلك الثقافات، فظهر مجموعة من العلماء والمفكرين والفلاسفة الذين أغنوا هذه الثقافة وغذُّوها بعقولهم ومعرفتهم وفكرهم، وظهرت المدارس الثقافية والفكرية التي أنشأت ثقافة جديدة وعلوم حديثة، وأساليب من التعبير والفكر.

٢- القوة:

الثقافة الإسلامية ثقافة تتميز بالقوة والصمود، لأنها تنتمي إلى مصادر قوية، ومبادئ ثابتة، وخصاص مميزة، وهذا ما أكسبها صفة النظام مع القوة، والتناغم مع الأفكار، والانسجام مع الثقافات الأخرى، وبما أنها ثقافة حوار وتواصل تميَّزت بالانفتاح والانسجام، والأخذ والعطاء، والتلاقح والتواؤم، ولم تكن ثقافة منعزلة منغلقة على نفسها ضعيفة في تفاعلها لأن أصول هذه الثقافة منفتحة على الثقافات الإنسانية، متفاعلة مع الحياة، آفاقها بعيدة ورؤيتها شاملة وإبداعها بلا حدود وهي مع محافظتها على خصوصيتها تجاورزت المحلية إلى العالمية والمحدودية البشرية إلى الإنسانية، لأنها كما ذكرنا ثقافة تتواصل مع الآخرين وتتعايش مع الجميع وتتعاون مع الإنسان في كل مكان، هذه القوة جعلتها ثقافة قادرة على بناء الإنسان السامي في ثقافته وفكره، والمُفجِّر لطاقاته الإبداعية في مجالات النشاط الإنساني كله، والإنسان الذي صقل مواهبه، وهذَّب

نفسه، وسما بروحه، وارتقى بوجدانه، ووظَّف ملكاته وقدراته في تعمير الحياة وبناء الحضارة، وتقدُّم البشرية ورخاء الإنسان، وتحقيق سرِّ الوجود الإنساني عبادةً لله وإعلاءً لكلمته[(1)].

يقول جارودي: [إنَّ الانفتاح يؤدي إلى إيجاد الحيوية الرئيسية للروح الخلاقة ففي كل صفحات القرآن نجد أنه يقول لنا: حاولوا أن تفهموا، قوموا بُجهد من أجل ذلك إنها دعوة دائمة للإبداع في القرآن]. ويقول: [إنَّ حوار الحضارات هذا يساعدنا على أن ننفتح في الصيد الثقافي على آفاق لا نهاية لها في المنظور الذي نوحي به في جميع المجالات إحداث تجددات الثقافة الغربية][(2)].

الانفتاح على الفكر العالمي يُكسب الثقافة القدرة على تكييف ما يقتبس من هذا الفكر وتلك التجارب مع القيم الإسلامية، وعدم الاعتماد على الأفكار والنظريات الوافدة من الغرب أو الشرق، لأن التفتُّح لا يعني هيمنة الثقافة الوافدة وإنما يقصد به الانتفاع والأخذ بكل ما يفيد الثقافة الإسلامية والفكر المرتبط به من الخبرات العالمية والإمكانات المتاحة مع الاعتراف بقيمة الثقافات الأخرى وجهود أصحابها، كما أن هذا الانفتاح يفيد الثقافة الإسلامية في معالجة المشكلات والقضايا بنظرة فاحصة وعقلية متفتحة وإيمان بضرورة التجديد وأهمية التطور، ولقد كان ولا يزال هناك مفهوم واضح هو أن الثقافة العربية والإسلامية قابلة لامتصاص ما تراه ناقصاً ولكنها قادرة على أن تحُول بين كل ما يغيِّر سماتها، أو يُزيِّف شخصيتها، أو يُحوِّلها

---

(1) يراجع هنا كتاب مالك بن نبي، المشكلات الثقافية لتحديد مفهومه للثقافة.

(2) روجي جارودي، من الإلحاد إلى الإيمان، إعداد رامي كلاوي، ص ٢٢٢.

عن مجراها العميق الذي حفره لها القرآن منذ أربعة عشر قرناً، وغاية الثقافة العربية الإسلامية هي المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء، ولقد كانت الثقافة العربية والإسلامية قادرة على الحركة التطور والتجدد دوماً دون أن تفقد عنصر الوحدة والاتصال بالماشي والموازنة بين الروحي والمادي، مع الحرص على الجوهر حتى لا تطغى عليها الأهواء وتجتاحها العواطف، ولا تقع في أزمات التمزُّق والصراع[١].

٣- التدافع:

التدافع سنة الحياة وهو مبدأ قرره القرآن الكريم في عملية التفاعل الحضاري كظاهرة حضارية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٣]، فالثقافة الإسلامية ثقافة تدافع وتفاعل مع الحياة، وتحاور مع الآخر بصورة مضطردة وصولاً إلى الحق ونشداناً للعدل، ونشراً لروح التسامح والخير باعتبارها أهدافاً للثقافة.

---

(١) أنور الجندي، مصحلة الإسلام، ص ٥٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

ثقافة التدافع هي الثقافة التي تُعبِّر عن طبيعة النفس البشرية والفطرة الإنسانية وتنفي عنها أن تكون ثقافة تَصارُع حضاري يرتبط بظاهرة الضعف والخمول وليس بظاهرة القوة والحيوية التي تميز الثقافة الإسلامية، وهذا التدافع يُمثِّل عنصر وعي وعلامة تحضُّر ومظهر تقدم وميسم صحة وعافية، ولولا هذه الخصائص التدافعية في الثقافة الإسلامية لما كُتب لها البقاء والاستمرار والوقوف أمام التحديات الثقافية، والفكرية، والمذهبية، التي واجهتها في مسيرتها الطويلة، وهذا التدافع هو الذي جعل من هذه الثقافة ثقافة إبداع وتنوُّع تلتزم بالقِيم والمبادئ الإسلامية، وتُعبِّر عن الهوية، مستندة من المقومات الأساسية للأُمة والقِيم الخُلُقية التي تضبط مسيرتها، وتُوجِّه حياتها.

إنَّ ثقافتنا الإسلامية بمقوماتها وقِيمها ومرتكزاتها تملك القدرة على البقاء والعطاء، والمواجهة والتحاور مع الثقافات الأخرى وليس التصارع معها لأنها كما قلنا ثقافة حوار وتواصل وتدافع، لأنها تنهض برسالة عالمية، وتُقيم علاقاتها مع الثقافة الأخرى على أساسٍ من النِديَّة، والتكافؤ، والعدل والإحسان، إنَّ مفهوم التدافع الثقافي حسب المصطلح الإسلامي هو الذي يتناسب مع طبيعة هذا العصر الذي تغيَّرت فيه العلاقات الإنسانية بيت الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، بحيث يكون التدافع هو السِمة التي تحكم العلاقات وليس الصراع الذي هو خروج على الإرادة الإنسانية المبنية على التعايش، والتعاون، والأمن النفسي والاجتماعي.

إنَّ علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى يفترض أن تقوم على قاعدة التدافع الثقافي الحضاري الذي يُشكِّل جزءاً من إيماننا وقيمنا،

وحياتنا ومفاهيمنا، وإذا ما واجهت هذه الثقافة ما يدفعها إلى التصارع كان لها في منطلقاتها، وجذورها، والعناصر المكوِّنة لها ما يعصمهما من التصارع، ويبعدها عن جوهرها الحضاري، والتدافع الحضاري بين الثقافات يتطلب وجود الشروط الموضوعية لعملية الحوار من حيث الإرادة المشتركة، والتكافؤ، والاحترام المتبادل، لأن الحوار دائماً يتم بين طرفين راغبين فيه، متهيئين له، بحيث لا يكون الأمر غزواً ثقافياً من جهات تمارس السيطرة وتجعل الحوار صراعاً هدفه الهيمنة وفرض الرأي، وبحيث يُبنى الحوار على أسس خُلقية، وقِيم ثقافية، فالله- تعالى- يعلم أن البشر متبجِّح ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يُدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة، فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، وتلك سنة الله ولن تجد لسُنة الله تبديلا[1]، يقول الإمام الطبري في شرح الآية الأولى: [ولولا أن الله يدفع بعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به بعضاً، وهم أهل المعصية له والشرك به، لفسدت الأرض بمعنى لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه، وطَول عليهم، بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم][2].

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ٧٤٢.

(2) تفسير الطبري، ٢/ ٤٠٣.

إنَّ الأمـة المسلمة تعرف أنها مكلَّفة بدفع الباطل وتمكين الحق من الأرض لأن حـركة الحياة مرتبطة بتدافع البشر الذين تتعارض مصالحهم، وبالـتدافع والتـنافس تكـون نتـيجة الـصراع في جانـب القـوة الخيِّرة التي فجَّـرت طاقاتها لتتدافع وتتزاحم ويكون نتيجة ذلك كله الصلاح والخير، والازدهـار والـنماء، لأن هـذا الـتدافع هـو الذي يُكمِل نضج أهل الحق ويجعـل طاقـاتهم كلـها تـستيقظ في مـواجهة قـوى الشر طاعةً لله وابتغاء مرضـاته، وهذا ما قاله سيد قطب: [لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفّن، لـولا دفـع الله الـناس بعـضهم بـبعض، ولـولا أنـه في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم، وتتكالب، وتتدافع فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فـيها مـن مكـنونات مذخـورة، وتظـل أبـداً يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض، مـستخدمة قـواها وأسـرارها الدفينة ... وفي النهاية يكون الخير والـصلاح والـنماء، يكـون بقيام الجماعة المستهدية المتجردة وتعرف الحق الذي بَّينه الله تعالى لها وتعرف طريقها إليه واضحاً ... وتعرف أنها مكلَّفة بدفـع الـباطل، وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أنْ لا نجاة من عذاب الله تعـالى إلاَّ أن تنهض بهذا الدور النبيل، وأن تحتمل في سبيله ما تحتمل، في طاعـة الله تعـالى وابـتغاء لرضـاه ... وهـنا يُمضي الله أمره، ويُنفذ قَدَره، ويجعـل كلمـة الحـق والخـير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والـتدافع في يـد القـوة الخيِّـرة البانـية التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المُقدَّر لها في الحياة][1].

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٢٧٠.

إنَّ ثقافة التدافع سُنة قطرية جعلها الله بين الناس لتستقيم الحياة على منهج الله، وليعتدل ميزان الحياة، فالحياة لا تخلو من الصراع بين الفئات الحيَّة فضلاً عن البشر الذين جعل لله التدافع سُنة من سننه التي تجري بها الحياة وعلى المسلم أن يعي هذه السُنة ويستفيد منها في مجاهداته وجهاده، ودفاعة عن الحق.

٤- التغيير:

منذ أن جاء الإسلام والتغيير سُنةٌ مِن سُننه، وخاصةٌ مِن خصائصه، فالرسول ﷺ وُوْجِه بعقائد فاسدة، وتصورات خاطئة، وقِم سلوكيات منحرفة، وأنظمة ومصالح، وقبائل وعصبيات كلها وقفت في مواجهة الدعوة الجديدة التي تدعو إلى تغيير العقائد والشرائع، والأنظمة والقوانين، والعادات والتقاليد، والقِيم والأخلاق، والمفاهيم والتصورات، ومع احتدام الصراع بين الحق والباطل، والجديد والقديم، والربَّاني والبشري، انتصرت الدعوة الجديدة وغيَّرت الأفكار والمفاهيم والحياة كلها لترتبط بالواقع الجديد الذي أحدثه الإسلام، ليُقِيم واقعاً جديداً، وبناءً فريداً استبدل أنظمة المجتمع الجاهلي السياسية، والفكرية، والدينية، بمبادئ الإسلام ونظامه في الحياة، ومنهجه في توجيه الحياة عبادةً لله في الشؤون العامة والخاصة، حتى كان المجتمع كله قد تغيَّر على النحو الذي يرضاه الله ورسوله.

الثقافة هي وسيلة التغيير للنفوس والأفكار داخل النفس البشرية أولاً، ثم المجتمع البشري، فالتغيير الثقافي أشبه بثورة على النفوس الفاسدة، والعقول المتحجرة، والآراء البالية، والمفاهيم المغلوطة لتنتقل

بعد ذلك إلى المجتمع الخارجي، فالرسول ﷺ أحدث التغيير في نفوس الرجال الذي تمثّلوا مبادئه، وتمسكوا بأخلاقه، تشرَّبوا أفكاره، والتزموا صفاته وآدابه، فأحدثوا أعظم تغيير في تاريخ البشرية لأنهم تمثّلوا حقيقة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، والمجتمع الذي ندعو إلى تغييره ليس مجتمعاً خيالياً مثالياً لا يمكن للبشر إقامته لأنه مجتمع كان حقيقة معيشة، وأنموذجاً قائماً، ووجوداً ملموساً، وتجربة إنسانية لا زالت حيَّة في التاريخ ويمكن أن تعود مرةً أخرى، وأنموذجاً قائماً، ووجوداً ملموساً، وتجربة إنسانية لا زالت حيَّة في التاريخ ويمكن أن تعود مرةً أخرى إذا كان المجتمع المسلم قوياً في إرادته، عازماً على تغيير واقعه.

الثقافة لم تكن وسيلة لتغيير المجتمع العربي وحده بل كانت وسيلة تغيير الأمم والشعوب التي دخلت في الإسلام وتفاعلت مع مبادئه وقِيمه [لقد كان تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى وسيلة لتحرير الشعوب والأمم من الخرافات والوثنيات، والعصبيات والمظالم، وطريقاً إلى إيقاظ الوعي والوجدان، وتحرير العقل والنفس حتى استقامت هذه الثقافات على كلمة الله الحق بالتوحيد، واستحدث القرآن الكريم قيمها الأساس عبادات ومعاملات، وأخلاقاً ونظام مجتمع، ومنهج حياة جامعة بين العقل والقلب، والروح والجسد، والدين والعِلم، والدنيا والآخرة][2].

---

(1) سورة الرعد: الآية ١١.

(2) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص ٥٢٨.

وعملية التغيير لا تتنافى مع التسليم لأقدار الله في الأرض لأن كل شيء في الوجود إنما هو بقضاء الله وقدره، ومع ذلك أمر الله عباده باعتباره التغيير فريضة شرعية، وضرورة إنسانية، فواج التسليم بأقدار الله مرتبط بمحاولة التغيير للواقع، والتطلع إلى الأفضل والأحسن لأن في هذا موازنة بين إيجابية الرغبة في التغيير وسلبية الاستسلام المُحطِّمة للنفوس، إنَّ المسلم كما يقول الشيخ الندوي: [لم يُخلق ليندفع مع التيار، ويُساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خُلِق ليُوجِّه العالم، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويُملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة، وصاحب العِلم اليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسَيْره واتجاهه فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، ومقام الإرشاد والتوجيه، وإذا تنكرَّ له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع سلاحه، ويسالم الدهر بل عليه أن يثور عليه، وينازله، ويظل معه في صراع حتى يقضي الله تعالى في أمره](1).

إن الإسلام يؤكد على أن التغيير لا يكون إلا بجهد البشر ومجاهدات المسلم الذي يبني الحياة ويعمِّرها صناعةً، وزراعةً، وتجارةً ورعايةً للحياة وبناءً للحضارة.

٥- التدرُّج:

التدرُّج من السنن الربانية التي استمدت من كتاب الله وسُنَّة رسول ﷺ حيث وجَّه الله سبحانه وتعالى الأمة إلى هذه السُنة في خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع قدرته أن يقول لهما كوني فتكونا،

---

(1) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٢.

كـذلك وجَّـه الله عـباده للـتأمل في الـتدرج في خلـق الإنـسان والحـيوان والنـبات، في أطوار ومراحل، بل إن سُنة التدرج ظهرت في العبادات التي لم تُفـرض مـرةً واحدة بل تدرجت في الصلاة التي بدأت بركعتين ركعتين ثم زيدت في الحضر وأُقصرت في السفر، والصيام الذي كان على التخيير أولاً ثـم فُـرض علـى الـناس والـزكاة الـتي أطلقـت أولاً ثم حدد نصابه ومقـداره، كمـا أن المحـرمات روعـي فـيها التدرج أيضاً فالخمر كان شربه عملاً مشروعاً في حياة العرب على المستوى الفردي والاجتماعي وتحريمه دفعةً واحدة من الصعوبة بمكان، والله أعلم بنفوس عباده حيث حرمها في أربـع مـراحل تهيـئةً لنفوسهم، وإعداداً لعقولهم، ومراعاة لقانون التدرج فـيهم فبدأ التحريم بمرحلة المفاضلة بين السُكر والرزق الحسن، ثم مرحلة فـيهما إثـمٌ كبير ومنافع للناس، ثم مرحلة منع اقتراب الصلاة لمن هُم في حالـة سُـكر، وأخـيراً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[1]، وهـذا مـا ذكـرته أُمُ المؤمـنين عائـشة- رضـي الله عنها- في حديثها عن نزول القرآن: [إنما أُنزل أول ما نـزل مـن القـرآن سـور فـيها ذِكـر الجـنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسـلام نـزل الحـلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، ولا تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الخمر ولا الزنا أبداً][2].

---

(1) سورة المائدة: الآية ٩٠- ٩١.

(2) البخاري، فضائل القرآن.

هـذه السُنة هي منهج إسلامي في التدرج في سياسة البشر وحملهم إلى شرائع الإسلام وتمكين تعاليمه ومبادئه، فالمجتمع المسلم لم يقوم في يوم ولـيلة عـن طـريق ثـورة شـعبية أو انقلاب عسكري إنما يقوم وفق قانون الـتدرج من السهل إلى الصعب، ومن الأصغر إلى الأكبر، ومن القليل إلى الكـثير، وبخاصـة مجتمعاتـنا الـتي تحـتاج إلى تـربية إيمانـية، وتهيـئة فكرية، وإعـداد نفـسي وخُلُقـي واجتماعـي، فالرسـول ﷺ غيَّـر المجتمع الجاهلي خـلال الفـترة المكـية بالتربـية والتوجـيه مـن خـلال رجال حملوا الرسالة وتحمَّلـوا تبعاتها، [ومنطلق هذه القاعدة أن الطريق طويلة لا سيما في هذا العـصر الـذي تنمَّـرت فـيه الجاهلية وأخذت أُهبتها واستعدادها، كما أن الـشر والفـساد صـار ضـارب الجذور في أعماق الأمة، وعليه فلو قطعت الطـريق في نفـسٍ واحـدة مع ثقل الحمل وضخامة التبعة لكان الانقطاع، وبالتالي القعود أو على الأقل الفتور والتواني الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى ردَّة فعل اشد وأعنف، ومنطلقها كذلك هدى الإسلام في دعوة الناس وإخـراجهم من الظلمات إلى النور حيث حرَّم الربا على أربع مراحل ولم يحـرِّمه دفعـةً واحـدة، وكـذلك الحال بالنسبة للخمر لم تُحرَّم جملة واحدة وإنمـا علـى أربـع مـراحل، وحـيث بـدأت الدعـوة بمـرحلة الاصـطفاء والتأسـيس ثـم مـرحلة الانفـتاح ثم مرحلة المواجهة والمقارعة ثم مرحلة النـصر والـتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعاً في وقت واحد، وإلا كانـت المـشقة والعجـز، ومـا كان يمكن كذلك أن تُقدَّم واحدة منها على الأخرى وإلا لحَاق الخلل والإرباك][(1)].

(1) د. سيد نوح، منهج أهل السنة والجماعة، ص ٦٨- ٦٩، ط ٢، دار الوفاء مصر.

والخليفة عمر بن عبدالعزيز يُعمِّق هذه الفكرة في عقل ابنه عبدالملك الشاب الذي يستعجل الأمور كما يفعل الشباب دائماً حيث يريدون النتائج السريعة فيقول لوالده الخليفة: [مالك لا تُنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أنَّ القدور غلت بي وبك في الحق]. فيجيبه قائلاً: [لا تعجل يا بُني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرَّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملةً، فَيَدعُوه جملةً، ويكون ذلك من ذات فتنة][1].

وهذا التدرج لا بد أن يَتمَّ من خلال دراسة الواقع ومعرفته وتهيئة الظروف التي ينزل فيها الحكم أو الأمر [وإذا كانت تكاليف الإسلام قد تدرجت حتى أكتملت عبر ثلاثة وعشرين عاماً عمر توالي الوحي على رسول الله ﷺ فإنَّ هذا التدرج لم يكن فقط بسبب تدرج التشريع وإنما اقتضاه أيضاً التدرج في تهيئة الواقع لتطبيق الأحكام، فتنزيل الحق على الواقع وعقد القرآن بينهما لا يتوافق فقط على وجود الحكم والحق، وإنما يتوفق أيضاً على تهيئة الواقع لأنْ تُحكم حركته بهذا الحكم الحق][2].

٦- السببية:

الأخذ بالأسباب من السنن الإلهية المبثوثة في الكون والمقررة في الحياة، فالقرآن الكريم يُحدِّثنا أنَّ الله خلق هذا الكون ووضع له من السنن والقوانين ما يحقق استقراره واستمراره، ولأن الله سبحانه وتعالى

---

(١) الإمام الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٩٣.

(٢) د. محمد عمارة، الإسلام والسياسة، ص ١٧٤.

يريد من خلقه أن يرعوا هذه السنة لمأ ذكر حَمْل الملائكة لعرشه، وإخراج الزرع بالماء وغير ذلك من أنه قادر على أن يُنبت الزرع بلا ماء، والعرش يقوم بغير الملائكة، ولكنه أراد مراعاة هذه السنة في الحياة كلها، فالله سبحانه وتعالى كان قادراً تجنيب رسوله ﷺ وأصحابه المعاناة التي عانوها في نشر الإسلام وإدخال الناس في دين الله، ولكنه كان يقول للمسلمين: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، ويقول: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2]، ليأخذ المسلمون الأسباب مع سنة التدافع، وينصروا هذا الدين بجهود البشر وأدواتهم، والرسول ﷺ وهو القدوة لهذه الأمة كان يأخذ بقانون السببية في كل أموره كما فعل في الهجرة التي أعدَّ لها إعداداً من تجهيز الرواحل، وطرق التواري، والاعتماد على الدليل ثم ترك الأمر لله بعد ذلك ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

[ولقد كان في حسِّ الأمة الإسلامية في صدرها الزاهر، أنَّ إيمانها بقدرة الله- تعالى- المطلقة وقضاؤه وقدره لا يتعارضا مع اتخاذ الأسباب، لقد كانوا يدركون إن الله تعالى سُنناً خارقة تملك أن تصنع كل شيء ولا يُعجزها شيء إلا أنَّ الله- جلَّت قدرته- قد قضى بأن تكون سُنته الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سُننه الخارقة استثناء لها وكلتاهما معلّقة بمشيئة الله، لذلك كان في حِسِّهم أن لا بد لهم من مجاراة السُنن الجارية إن

---

(1) سورة محمد: الآية ٧.

(2) سورة الانفال: الآية ٦٠.

(3) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم، أي أنه لا بد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السُنن الجارية][1].

وحتى بالنسبة لأمر الآخرة لا بد من الأخذ بالأسباب ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾[2]، إن الثقافة الإسلامية تجسِّد هذه السنة التي تُبيِّن أنَّ أي تقدم للبشرية أو ازدهار أو تحضُّر لا يتم دون الجهد البشري والطاقة الإنسانية، والعمل الجاد القائم على قوانين الله التي لا تتبدل وسننه الثابتة السائرة في الحياة، وليس هناك تعارض بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، لأن المسلم يؤمن بأنه مطالب بالسعي والجهد واتخاذ كل سبب ممكن ولكن أقدار الله هي التي تمضي، المسلم مطالب بالأخذ بهذه السنة ثم يتوكل على ربه في نتيجة أعماله، لأنه عندما يأخذ بها [يتخذ الأسباب عبادة لله وانطلاقاً من سنة الله الجارية، ويحسُّ في الوقت ذاته أن النتيجة التي وصل إليها هي قَدر قدَّرة الله تعالى وليست حصيلة أسبابه التي اتخذها، وأن الأسباب لا تؤدي بذاتها أداءً حتمياً إلى النتيجة وإنما تؤدي إلى النتيجة بقَدرِ الله، ولو شاء الله ألا يوصل السبب إلى النتيجة فإن الذي ينفذ الفعل هو إرادة الله وليس حتمية الأسباب][3].

إن هذه السُنة توجه الأمة الإسلامية إلى أن تتجاوز مراحل الضعف والوهن إلى مرحلة إثبات الذات وقوة البناء والأخذ بما يحقق

---

(١) محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تُصحح، ص ٢٦٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٩.

(٣) محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تُصحح، ص ٢٧٧.

الوجـود، ويُمكّـن في الأرض بـبذل الجهـد والطاقـة، وإحـسان الإعـداد والعمل، وردُّ الأمر في النهاية إلى خالق الأسباب والنتائج، كل ذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره في العمل وفق سُننه في الكون، ومع أن الله قادر على أن يُجـري سُـننه الخارقـة نُـصرةً لعـباده، وتمكيناً لدينه، إلى أنّنا نؤمر بالدعاء وانـتظام المعجـزات الخارقـة بـل أمرنا بمراعاة سُنن الله الجارية في الكون، والمُسيِّرة للحياة، والضابطة للأمور.

الفصل الحادي عشر

حـــوار الحضـــارات

١- مفهوم الحوار مع الآخر.

٢- العلاقة بين الحضارات.

٣- الحوار بين الإسلام والغرب.

الفصل الحادي عشر

حـــوار الحضـــارات

١- مفهوم الحوار مع الآخر

الحوار- كما قلنا- نشاط إنساني يقوم بين جماعات مختلفة أو كيانات حضارية متميزة، وهو من خصائص الإنسان الذي يعمل للتواصل مع الآخر، والمقصود بحوار الحضارات في المفهوم الإسلامي الوصول إلى كلمةٍ سواء بين الأنا والآخر، رضاً وقناعة، وامتثال تام، وربما لتقليص الفجوة بينهما وليس هدفه تحويل (الآخر) إلى (الأنا).

ووسيلة الحوار هي اللغة باعتبارها أداة تواصل مع الموروث، بالإضافة إلى وظيفتها كأداة تفاهم وتعبير بين الناس، أما مستويات الحوار فيمكن أن يكون الحوار بين المفكرين، والمثقفين، والكُتَّاب الذي يهتمون بقضية الحوار وسيلة للتعايش، كما يمكن أن يكون على مستوى الدول ممثلة في مؤسساتها العلمية، والثقافية، والإعلامية، وقد يكون على مستوى المنظمات غير الحكومية التي تُمثِّل نسيج المجتمع المدني.

أما قضايا الحوار فواسعة تشمل كل قضايا الإنسان، وهمومه، وتطلعاته، وحقوقه، والمجتمع المسلم هو المجتمع الوحيد الذي يمتلك مشروعاً حضارياً متكاملاً ينظر إلى الإنسان في جانبيه المادي والروحي، ويعمل على دفع الإنسان المسلم لبلوغ الكمالات الإنسانية، هذا المشروع الحضاري حدد القرآن وسيلة الوصول إليه والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار بالتي هي أحسن، وهذا ما يجعل هذا الحوار قائماً على أساس احترام الآخر بعيداً عن روح الإسقاط والاستعلاء، وإذا كانت

الحكمة هي معرف حقائق الأشياء وفهمها، والإصابة في القول والفعل، وتوخّي القصد والاعتدال، وهي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي كما يقول ابن قيم الجوزية[1]، فإنَّ هذه الحكمة بهذا المفهوم يوجب على المسلمين أن يكون خطابهم بلغة العصر وحاجاته، وأن تكون آليات خطابهم متطورة، وفاعلة، ومؤثرة، بما يجعلها تُقدِّم حضارتها في جوانبها العملية والنظرية، وبما يجعل لها قوة وريادة وإثراء في المجتمع العالمي، وبما يجعلها أيضاً تُقدِّم البديل للمشاريع الحضارية المنهارة التي أغفلت الجان الروحي والمعنوي في الإنسان وكانت مصدر شقائه وتعاسته، وأوليات الحوار الحضاري تلزمنا أن ندفع الحوار في طريق المعرفة الحقيقية للإنسان الذي يكون حواره مع الآخر بالفكر واللسان، وليس السيف والسِنان، أو الظُفر والناب، لأن الحوار بين البشر لا بد أن يستند إلى خلفية الإيمان بالجانب الروحي في الإنسان، لأن الجانب المادي وحده يدفع إلى صراع محموم، بينما يتحقق التعارف، والتعايش والتفاهم، والحوار على خلفية الروح الإلهية في البشر، فالدعوة إلى الحوار اعترافٌ بالجانب الروحي من الإنسان والجانب السامي منه، مما يؤكد أهمية الدين في المجتمع الإنساني، ودور الرسالات التي تُربي الجانب المعنوي كوسيلة لتكامل الإنسان وسموه، وتسخيراً للكون، ولهذا يقول كثير من المفكرين بأهمية الدين في وجود حضارة إنسانية لأنها تقوم على أساس روحي، فالحضارة أساسها إنساني، وروحي يتنافى مع الصراع المادي الذي تفجره المصالح المادية فحوار الحضارات هو وسيلتنا لتقديم فهم موضوعي واضح للعلاقات بين المجتمعات الإنسانية المتحضرة، ومعرفة العلاقة التبادلية بين الدين والحضارة، ولكي يتحقق هذا الحوار

---

(1) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٤٩٩.

نتيجة إيجابية على المجتمع المسلم لا بد من أن تحقق الشروط الموضوعية التي تحقق أهداف الحوار وتوجهه في الاتجاه الصحيح، لذلك كان تحديد أهداف الحوار من الضمانات الحقيقية للوصول إلى نتائج تعزز التعارف الحضاري، وتدعم التعايش الإنساني الذي يحدد موقعنا في الساحة العالمية، ومكانتنا بين المجتمعات البشرية، إن تحديد الأهداف الرئيسية والفرعية من عملية الحوار بين الثقافات والحضارات شرط أساسي لترتيب قائمة الموضوعات والقضايا التي يتعين أن يشملها الحوار، والحق أن طبيعة اعصر بكل تفاعلاتها المُومأ إليها تدعونا إلى أن يكون التعايش الثقافي والحضاري بين البشر غاية تجتمع حولها عقول النُخبة المُفكِّرة، وإرادات أصحاب القرار، وذلك من منطلق الإيمان بوحدة الجنس البشري أولاً، والتسليم بحق الإنسان في أن يحيا على هذه الأرض في وئام مع نفسه وفي وفاق مع أخيه الإنسان، وفي سلام شامل ينعم بثماره ويحفظ له كرامته وإنسانيته، والتعايش الثقافي والحضاري هو خلاصة التعاون الذي يجب أن يكون قاعدة عامة للعلاقات بين الدول والأمم والشعوب فتزدهر في ظله الحياة الإنسانية وتسود قِم الإخاء الإنساني الذي يتسع لكل معاني الحب والخير، والحق والعدل، والفضيلة والجمال[١].

إن الهدف من الحوار ينبغي أن يكون الوصول إلى الحقيقة من المتحاورين جميعاً، أما إذا كان القصد من الحوار هو مصادرة الآخر وإقصاؤه والنصر والغلبة لحضارة يشعر أصحابها بالتميز عن باقي الحضارات، فإن منطق القوة سيكون سائداً بين الحضارات فهناك حضارات معادية للحوار كاليهودية وغيرها، بينما هناك حضارات صالحة للحوار كالحضارة الإسلامية القائمة على التعايش، والتفاهم، والتعاون

---

(١) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ١٤٩- ١٥٠.

بين بني البشر تحقيقاً لتعاليم دينهم، ومبادئ إسلامهم، والقِيم الإنسانية في الحضارة الإسلامية التي جعلت أصحاب الحضارات المختلفة والملل والنِحل يعيشون في ظلها في تعاون وإخاء إنساني هدفه خير الإنسان أياً كان هذا الإنسان، إن الانفتاح على الأمم والشعوب، والتعايش معها بروح التسامح، والخير، والعدل تمثّل المقومات التي ترتكز عليها الحضارة الإسلامية التي تميَّزت بالقدرة على استيعاب الخلاف والتعايش الحضاري مع البشر أجمعين، حيث وجدت شروط ككارية التسامح، وتحقيق الأخوة، وتجاوز الخلافات مما أكسب المجتمع الإسلامي القوة والمنعة، والتماسك والترابط، والقدرة على التقدُّم وتجاوز التمزُّق والتصدُّع.

إنَّ الحضارات تستند على أساس موضوعي هو وحدة النوع البشري وهي وحدة في إطار التنوع الإنساني المستمد من تمايز الأقاليم، والألسنة، والعادات، والأخلاق، والدين، وهذا ما يفرض طبيعة العلاقة بين الحضارات المختلفة من حيث قيامها على العدل وإشاعته وجعله أساس العلاقات بين الأمم والشعوب، وهذا الحوار القائم على العدل هو السبيل إلى محارة الظُلم، وتجنُّب التعصب الديني والقومي، ونبذ التطرف والمغالاة، لأنه سيكةن حواراً بين العقلاء من الأمة.

وهذا الحوار لا بد أن يستهدف حماية الثقافة من التغوُّل وضمان استقلاله من علاقات السوق والمساعي الرامية إلى جعل الثقافة سعلة من السلع، إن بعض علماء الغرب يرون أنَّ الإسلام هو أحد الخيارات الحضارية الكبرى في عالم اليوم لِما يملك من منظومة القِيم، وقوة الثقافة القادرة على التجدد والانبعاث.

إنَّ الحوار الحضاري هو الذي يجعلنا نكتشف في غيرنا عناصر التقدُّم، وأسباب النهوض، والمكونات الحية في الحضارات الإنسانية، كما

نكتشف في أنفسنا عوامل التخلف، ومسبباتها، ثم كيفية الأخذ بأسباب التقدم، وقوانين النهوض، وهنا نكون قد فهمنا غيرنا وفهمنا أنفسنا، فحوار الحضارات وسيلة للبحث عن القواسم المشتركة العامة بين الحضارات في المجالات المختلفة وبخاصة مجالات الثقافة والفنون، والسياسة والاقتصاد، والتربية والاجتماع، وكذلك في مجال العدالة والحريات الإنسانية، وهذا ما يحقق النظرة المنهجية المعرفية للقواسم المشتركة بين الحضارات.

حوار الحضارات رؤية مستقبلية لموقعنا في هذا العالم المتغيِّر المُقبل على آفاق جديدة تتطلب تبادل الأفكار والثقافات بروح المرونة والتسامح، وبحيث يحقق العالم الإسلامي فعلاً حضارياً مؤثراً، وتفاعلاً حضارياً إيجابياً يضمن للعالم الإسلامي موقعه وأثره في المجتمع الإنساني بحيث يكون مجتمعاً مسلماً يعزز استقرار الحياة الإنسانية المضطربة، ويعمل على إشاعة الأمن والسلام في الأرض.

والحوار المطلوب لا تتحقق أهدافه إلا إذا قام على أساس ثابت من الإيمان بالأهداف المشتركة والاقتناع بها والعمل على نجاحها ثم الثقة في دوافع الأطراف المشتركة في الحوار، والاحترام المتبادل بين الفريقين، ولا يمكن أن يقوم حوار بين البشر إلا إذا اقتنع كل طرف أنه سيتعلم شيئاً جديداً من هذا الحوار، [إننا من واقع حرصنا على التشبث بالهوية الحضارية، وحماية الشخصية الثقافية لشعوبنا لا نريد حواراً وتفاعلاً بين الثقافات والحضارات هما مجرد ترف فكري، ونريد حواراً وتفاعلاً بين الثقافات والحضارات لا تكون لهما انعكاسات على الواقع المعاصر ولا تصل آثارهما إلى دوائر صنع القرار، ولا نريد حواراً وتفاعلاً بين الثقافات والحضارات ينطلقان من الإحساس بالتفوق العنصري،

وبالاستعلاء الحضاري ويصدر عن روح الهيمنة الثقافية، إنه ينبغي أن يكون هدفنا الرئيسي من إقامة الحوار الذي ينتج عنه التفاعل الحضاري بين أهل الثقافات والحضارات، ومن هذه المنطلقات تحديداً هو إشاعة قِيم التسامح بالمعنى الراقي للتسامح كما يفهمه المؤمنون بالله والمؤمنون بوحدة الأصل الإنساني، وبوحدة المصير الإنساني أيضاً وإلى ترسيخ الهوية الثقافية والحضارية][1].

٢- العلاقة بين الحضارات حوارٌ أم صراع؟

للإجابة عن هذا السؤال نُشير إلى وجود ثلاثة اتجاهات كبيرة:

الاتجاه الأول: يقول بصراع الحضارات حسب رأي هنتنغتون المشهور.

واتجاه ثانٍ: يُمثله تيار كبير من الغربيين والمفكرين المؤيدين للحوار، والمنادين بالتعددية الثقافية، إلى جانب عدد كبير من الإسلاميين الذين يدافعون عن تهمة الصراع الموجهة للحضارة الإسلامية، وهؤلاء ينادون بالحوار بين الحضارات.

وأما الاتجاه الثالث: فهو الذي يرى أن الحوار والصراع انعكاسات لحالة العلاقة بين الحضارات، فبينما يرى البعض في هذا الاتجاه أن الاختلال في ميزان القوى في العلاقات الدولية لصالح الحضارة الغربية لا تسمح بحوار متكافئ بنَّاء بين الحضارات، بينما يرى البعض أن الحوار في ظل هذه الظروف الدولية سيكون وسيلة للخروج من الأزمة الراهنة إذا ما توافرت الشروط الموضوعية التي تحقق أهدافه.

---

(١) د. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٦٥.

تُمثّل أطروحات هنتنغتون سياسة الغرب تجاه المسلمين حيث اعتبروا الإسلام هو المُهدِد لحضارتهم، فالصراع كان ولا يزال يمثّل نظرة الغرب للعالم وللمسلمين بصفة خاصة، لأنهم يرون في الإسلام تهديداً لحضارتهم لإدراكهم التام لِما تحمل حضارة هذه الأمة من أبعاد ثقافية، لا تحقق الهيمنة الثقافية للغرب لو تمّت الهيمنة السياسية والاقتصادية، بل إن الغرب في علاقته التاريخية مع المسلمين كان يستغل العامل الثقافي ليحقق أهدافه السياسية والاقتصادية التي لم يستطع تحقيقها بالوسائل التقليدية، إذ لم تكن السيطرة على الثروات والأراضي هي الهدف فقط، بل كان استبدال النموذج الثقافي والسيطرة عليه هدفاً كبيراً لذلك فإنَّ الخلل في الجانب الاقتصادي والسياسي بين طرفين متحاورين لا يحقق أهداف الحوار الثقافي بالمفهوم الواسع للثقافة، وفي هذه القضية لا بدّ من توضيح مبدأين مهمين في المفهوم الإسلامي لحوار الحضارات:

المفهوم الأول:

إنَّ الإسلام يطرح تعارف الحضارات وليس صراعها لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[1]، وهو مفهوم مختلف عن المفهوم الغربي في الحوار الثقافي والحضاري في جوهره وغاياته ودوافعه، فمصطلح (تعارف الحضارات) مصطلح إسلامي معتمد على مرجعية القرآن، بينما مصطلح (صراع الحضارات) مصطلح غربي يُعبِّر عن الاهتمامات الثقافية، والفكرية، والعملية في الغرب، وإذا كان الغرب يطرح الآن الدعوة لحوار

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

الثقافات إلا أن الواقع العملي والتاريخي يُبيّن أنَّ حوار الثقافات لا يُشكّل أساس الرؤية الغربية في التعامل مع العالم، وكمثال لذلك فإنَّ نظرة الغرب في قضايا المرأة والأسرة يُبيِّن مضمون الحوار حول هذه القضايا التي يريد الغرب فرض ثقافته ورؤيته على العالم مهما كانت الثقافات مختلفة مع الرؤى الغربية.

المفهوم الثاني:

مصطلح (الصراع) في المفهوم الغربي يقابله مصطلح (التدافع) الذي هو سُنة من سُنن الاجتماع البشري وله مفاهيمه التي تختلف عن مفهوم الصراع، وهو مثل (الجهاد) الذي لا يعني الصراع مع الآخر لإقصائه والقضاء عليه، بقدر ما يعني أنه أداة الدعوة للآخر ونشره، ولكل من مفهوم (التدافع) و(الجهاد) ضوابطه، وأدواته، وشروطه مما لا يجعل أحدهما بديلاً عن الآخر، وهذا الجهاد أو الصراع العسكري أو السِلمي إنما يهدف لتحقيق غايات الدعوة إلى الإسلام باعتبار أن الرسالة المحمدية هي رسالة للعَالَمين لا تعتمد القهر والإكراه للشعوب، ولا يهدف إلى سيطرة ثقافة على أخرى بل العمل لنشر عالمية الإسلام، بخلاف مفهوم (صراع الحضارات) الذي يعمل على تكريس هيمنة الغرب وحضارته بأساليب قمعية إكراهية إجبارية معروفة.

فالمفهوم الإسلامي للحوار يقوم على فكرة (التعارف) لا الصراع، وعلى سُنة التنوُّع، وعالمية الإسلام الذي يقدِّم المبادرات وليس التبريرات والدفاع عن اتهامات الغرب المتعددة للإسلام مرة، وللمسلمين مرةً أخرى.

الصراع الحضاري: المقصود به التدافع من أجل تحقيق القِيم، لأنه لا بـد مـن التنافس المادي مع الحضارات مع اختلاف المقاصد، لأنّ ذلك هـو الـذي يحمـي قِيم الحضارة الإسلامية، كما أنَّ التنافس الروحي مهم أيـضاً لتحقـيق الأنمـوذج الأمـثل في الدعـوة لهـذه القِيم، كما أنَّ التنافس المـادي والروحـي مطلـوب علـى مـستوى الآلـيات، والوسـائل لحمايـة الأهـداف الـتي تُمـثِّلها القِيم، لأن هدف الحوار هو التعارف الذي يهدف إلى طلـب الحقـيقة، والـسعي لهـا والعمـل بهـا، إنَّ إشـكالية العلاقـة بين الحـضارات تطرح عدداً من المواضيع المتداخلة مثل دور الدين والسياسة، والأبعـاد الخُلقـية والدينـية المـرتبطة بالقضايا الدولية مثل التنمية والفقر، ومشاكل البيئة، وقضايا حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وكلها قضايا ذات أبعاد ثقافية لها مكانة في أي حوار بين الحضارات.

٣- الحوار بين الإسلام والغرب

أصبح الحـوار بـين الإسـلام والغـرب مـن القضايا المحورية التي احـتلت مساحات كبيرة من الدراسات ومن تخصصات مختلفة تناولته من زوايـا مـتعددة باعتـبار الحوار نشاطاً إنسانياً يجري بين مجموعات حضارية متميـزة، وباعتـباره خاصـة إنسانية متأصلة في النفس البشرية التي تتفاعل مـع الأطـراف الأخـرى، والـذي نـسعى إلـيه هـو قيام حوار مع الغرب مؤسس على الأنموذج القرآني والسلوك النبوي في دعوة الآخر إلى الدين الحنـيف، وخطـاب الآخر هو هدايته إلى الحق والخير والحوار في الأنموذج القرآنـي يهـدف إلى الوصـول إلى كلمةٍ سواء بين الأنا والآخر وفق قناعة ورضـا مـن الطـرفين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا

﴿وَبَيْنَكُمْ﴾[1]، لأن هـذه الكلمـة هـي الهـدف الذي يراد الوصول إليها من خلال النشاط الإنساني وليس الهدف هو جعل الآخر صورة من الأنا، أو مجـرد تقلـيص الفجوة بينهما، وهذا الحوار هو الذي يؤدي إلى وعي ثقافي يكون الأساس للعلاقات الإنسانية المرجوة بين البشر، والحوار الإسلامي هـو الـذي يجـسِّد روح التوسـط والاعـتدال التي تسود الفكر الإسلامي، وأحكـام الإسلام التي تنبذ التطرف وترفض العنف، وتركِّز على التوسط الـذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2]، فهـذه الأمة سمتها الاعتدال، ومبدؤها الوسطية، ولغتها الحـوار بالكلمـة الـراقية والمـنهج الـسديد الذي يُجسِّد سمات الشخصية المـسلمة المتسمة بالتسامح والسمو عن الصغائر، ومجافاة الباطل، لأن هذا الحوار يستند إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحاء.

وهـذا التـسامح في الخطـاب الإسلامي ومنهجية الحوار هو الذي جعـل المـسلمين يـتجاوزون المـرارات الـتي خلَّفهـا الغرب باحتلاله لبلاد المـسلمين لفـترات طويلة، واستنزافه لمواردهم، وتعطيل تنميتهم، وإهمال مـصالحهم، بـل إنهم تجاوزوا المعارك السياسية، والاقتصادية، والعسكرية الـتي أدت إلى مـواجهات وتـضحيات في سـبيل التحرير والاستقلال عن الغرب، كل ذلك تجاوزه الفكر المسلم بسماحته، ودعوته إلى بناء علاقات جديدة تقوم على التفاهم والتعارف، والنِدية والنوايا الحسنة، ودعوته إلى حـوار يُعمِّـق العلاقات الإنسانية بين الشعوب، ويُنعش الصلة بين الأمم، والمطلـوب هـو أن يكـون الغـرب قـد تخلَّص من أفكاره وماضيه القديم

(1) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(2) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

ليرتفع الجميع إلى مستوى التحديات العالمية المعاصرة، ومع أن تجارب الماضي مؤسفة ومأساوية، إلا أن هذا الماضي لا يشكّل عبئاً ثقيلاً على الحاضر والمستقبل.

المفكرون المسلمون طرحوا الدعوة إلى الحوار بين الحضارات والثقافات في مواجهة الفكرة الداعية إلى تصادم الحضارات والمواجهة بينها وهي الفكرة التي طرحها (صامويل هنتنغتون) في مقاله الشهير المثير للجدل عام ١٩٩٣م، ثم طوَّرها وأخرجها في كتابٍ بعنوان (صِدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي) الذي صدر عام ١٩٩٦م، فهذه الدعوة للحوار ربما كان بديلاً نتجاوز به مشكلات العولمة التي يُروِّج لها النظام العالمي الجديد مع كتاب هنتنغتون لم يأتِ بجديد لأنه خلاصة للفكر الغربي باختلاف مذاهبه في نظرته للآخر دائماً القائمة على النظرة الدونية والعلاقة غير المتكافئة، والذي يتبادر إلى الذهن عندما نتحدث عن الغرب هو الدول الأوربية وأميركا، لأن هذه الدول وإن كانت تُمثِّل أقاليم مختلفة، وعقائد متباينة إلا أنها تجتمع في منظومة حضارية مترابطة ومتكاملة من القِيم والمبادئ، والأفكار والمذاهب والسياسات تضج بالحركة، وتبحث عن مصالحها وتضعها في مقدمة أولوياتها وتتعامل مع العالم من منطلق الحرص على هذه المصالح واستثمارها، وتنميتها والحفاظ عليها بكل الطرق والوسائل[1].

ولكي يكون الحوار مع الغرب مفيداً محققاً لمصالح الطرفين فلا بد من أن يقوم على الاحترام المتبادل، والنِدية، والرغبة من الطرفين في إدارة حوار بنَّاء يُفضي إلى نتائج تخدم الطرفين، وأن يكون الحوار ذا مضمون ودلالة. إنَّ تاريخ الغرب مع المسلمين تاريخ مؤلم مرتبط باحتلال

---

(١) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٤٨.

الـدول واستنزاف مـواردها وقـتل أسباب التقدُّم فيها، وزرع المشكلات الـتي تُشكّل جُرحاً غائـراً في نفوس هذه الشعوب التي قاومت الاحتلال بكـل الوسـائل المشروعة حتى نالت استقلالها، وإن كانت لا تزال تُعاني مـن المـشكلات الـتي خلَّفهـا الاحـتلال ومـع ذلك كله استطاعت الأمم الإسـلامية أن تـتجاوز تلـك الآلام، وتـتغلَّب على تلك المرارات، وتقبل الحوار بحثاً عن روحٍ جديدة من التعاون والتفاهم.

إنَّ المـسلمين لهـم القـدرة علـى الارتفـاع فـوق مخلَّفـات الماضـي وآثارها في النفوس والقلوب، والإقبال على الحوار بروحٍ جديدة وجِدية، وقدرٍ عالٍ من المسئولية، إلا أن الغرب لا زال يتعامل مع العالم الإسلامي بأفكـاره المغلوطة عن المسلمين، ومفاهيمه الخاطئة عن الإسلام ولا زالت تـتملكه النظرة الدونية للمسلمين، الأمر الذي يجعل الحوار فاقد لشروطه الموضـوعية، وأسـباب نجاحـه العملـية، ولا زالـت تتملكه النظرة الدونية للمـسلمين، الأمـر الذي يجعل الحوار فاقد لشروطه الموضوعية، وأسباب نجاحـه العملـية، وإذا كانـت الظـروف قـد تغيَّـرت في هذا القرن وأصبح الحـوار ضـرورة حياتـية بـين جميع القوى الحضارات والثقافات، فإنَّ هذا الحـوار يحـتاج إلى أن تُحـدد حـدوده وفـق قـناعات كما حدَّدها الدكتور عبدالعزيز التويجري فيما يلي:

١- أن يكـون الحـوار متكافئاً تتوفر له شروط المساواة والنِديَّة والإرادة المـشتركة أن يكـون شـاملاً مـع المؤسـسات الحكومـية، وتنظيمات المجتمع المدني.

٢- أن يتـناول مختلف القـضايا التي تهم العرب والمسلمين، من قضايا ثقافـية وفكـرية، واقتـصادية واجتماعـية، وعلمـية نقابـية، باستثناء قضايا السيادة.

٣- أن يهدف إلى تحقيق منافع مشتركة للطرفين، وأن يؤدي إلى تأمين المصالح التي يحرصان عليها والتي لها صلة بالتقدم في مجالات الحياة كلها وبما يعود بالمنفعة للجميع.

٤- أن يكون متحضراً ومترفعاً عن الموضوعات مثار الاختلاف، والمتعلّقة بالثوابت العقدية والمسائل الحساسة المرتبطة بالتعاليم الدينية والقِيم المرتبطة بها.

٥- أن يسير الحوار في خطوط متوازية ووفق برامج مُعدَّة مسبقاً، فلا يتوقف الحوار في هذا الاتجاه حول موضوع معين بينما تظهر النتائج المترتبة على الحوار السائرة في الاتجاه الثاني، وإنما تترابط حلقات الحوار وتتداخل الاتجاهات فيما بينها وصولاً إلى التكامل بين الأهداف المتوخاة.

٦- الحوار مع الجهات الأكاديمية والثقافية حول القضايا ذات الثقل المعرفي الكبيرة، سيبقى دائماً هو المدخل الرئيس إلى الحوار العام حول الموضوعات ذات الطبيعة الشمولية، وليس بالضرورة أن تنصرف الجهود إلى الحوار ذي الطابع الديني، وإن كان الحوار الديني أساساً من أسس التعايش والتفاهم اللذين يُمهِّدان للتعاون في شتى المجالات[١].

المسلمون مطالبون مع الشعوب المستضعفة بعمل مشترك ومواجهة لهذا الواقع الذي يجعل الهيمنة للأقوى على الضعيف، والغني على الفقير، والغرب على العالم كله، والحوار هو الوسيلة لتعبئة القوى الرافضة للعولمة والمناهضة للأمركة في سبيل نظام يتسم بالعدالة ويعترف

(١) د. عبدالعزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٥٠- ٥١، بتصرُّف.

بالفروق، ويُشجِّع التنوُّع، ويُحقق مفهوم التعارف القرآني الذي يدل على المشاركة، والاحترام المتبادل والشراكة المعرفية التي تُوظَّف في النهاية لخير البشر وقيام مستقبل أفضل لهم من خلال حوار مع شريك يؤمن بأهمية التعاون والتعارف بخاصة في الغرب الذي يفقد الإحساس بالمُقدَّس كما في المحاضرة المشهورة للأمير (شارلز) ولي عهد بريطانيا بعنوان (إحساس بالمقدَّس: بناء الجسور بين الإسلام والغرب) حيث يقول: [إنني أبدأ من الاعتقاد بأن الحضارة الإسلامية تحمل رسالة هامة إلى الغرب تكمن في الطريقة التي احتفظت فيها برؤية موحَّدة ومتكاملة لحُرمة العالم من حولنا، وأنني أشعر بأننا في الغرب يمكن أن تلقي عوناً على إعادة اكتشاف فهمنا الخاص بتقدير احترام التراث الإسلامي العميق النواميس الأبدية للنظام الطبيعي، وأعتقد بأنَّ تلك العملية يمكن أن تساعد في مهمة التقريب بين دينينا، ويمكنها كذلك أن تساعدنا نحن أهل الغرب على إعادة التفكير نحو الأفضل في عنايتنا العملية بالإنسان، وبيئته في ميادين الرعاية الصحية والبيئة الطبيعية والزراعة، وكذلك في العمارة والتخطيط الحضري[1].

إنَّ شروط الحوار مع الغرب تقتضي أن لا يقتصر الحوار على علماء المسلمين ورجال الدين المسيحي ليناقشوا قضية التسامح بين الديانتين، ولا السبق بينهما، ولكنه يحتاج إلى رصد رؤية كلٍ من المسلمين والغرب للآخر من خلال فنونهم، وآدابهم، وعلومهم، وأعلامهم، حيث يغير كل الصورة المرسومة في ذهنه من الآخر، وتطوير هذه الصورة لتأخذ وضعاً جديداً، بالإضافة إلى أن الحوار لا يستهدف الخصوصيات الذاتية لإذابتها أو تعديل أنساقها القِيمية بما يخدم أنساق الثقافة الأخرى لأن غاية

---

(1) الأمير تشارلز، إحساس بالمُقدَّس بناء جسور بين الإسلام والغرب، ص ١٠، مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، اكسفورد ١٩٩٧م.

الحوار ليس تذويب الثقافات، ولا دمجها بل تربية الأمم على احترام الاختلاف باعتباره سُنة الحياة وكيفية التعايش مع هذا الاختلاف. إن الغرب في تاريخه الطويل مع المسلمين كان يدير صراعه معهم من خلال الأدارة الثقافية في مفهومها الواسع وقد استغلت هذا العامل الثقافي لتحقيق أطماعه التوسعية، وأهدافه السياسية لأن الأدوات التقليدية كانت عاجزة عن تحقيق ذلك دون الأداة الثقافية، فكما ذكرنا لم تكن السيطرة على البلاد الإسلامية وثرواتها هي الهدف الوحيد، بل كن هدف السيطرة على النموذج الثقافي والفكري، واستبداله بالنموذج الغربي، أكبر أهدافهم، فالدعوة لحوار أديان وثقافات ليس إلا تكملة لحلقات سابقة في ظل موجات العولمة الثقافية التي تخترق الشعوب المسلمة التي يتعرَّض ثقافتها، وعقيدتها، وحضارتها لأخطر موجات التحدي والتي تستوج تدعيم الثقافة الإسلامية لتواجه هذه التحديات والاختراقات.

إنَّ الإسلام ينظر إلى ما يعتبره الفكر الغربي صراعاً حضارياً مستمراً بين الأمم حتمياً، ينظر إليه من خلال سُنة التدافع بين البشر باعتباره من سنن الاجتماع البشري، فالجهاد عند المسلمين في معناه الواسع ليس صراعاً مع الآخر، وإقصاء له، وقضاء عليه بل هو أداة من أدوات الدعوة ونشرها لتقديمها للآخر باعتباره أداة مثل أداة التعاون السلمي، ولكل منها شروطه وظروفه، ودواعيه، وأدواته وضوابطه دون أن يكون أحدهما بديلاً عن الآخر فالعلاقة بين المسلمين وغيرهم ليس علاقة الحرب والسلام كما يزعم البعض، فإذا كان الغرب يقيم علاقته على منطق حتمية الصراع، فإن الجهاد لا يهدف إلى تأكيد هيمنة ثقافة على أخرى أو سيطرة قوم على آخرين، بل يهدف إلى نشر رسالة الإسلام باعتبارها رسالة عالمية تُقدَّم بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة وليس عن

طريق الإكراه والقسر والإجبار للأمم والشعوب، هذا بعكس فكرة صراع الحضارات الذي دعا إليه (هنغتون) الذي يكرِّس الهيمنة بأساليب القوة والقسر والإجبار لتحقيق هيمنة الحضارة أو عولمة النموذج الحضاري الغربي.

إنَّ المفهوم الإسلامي عن حوار الحضارات يعتمد على الأسس المعرفية للرؤية الإسلامية المرتبطة بالكتاب والسُنة ويختلف عن المفهوم الغربي في ذلك، وفي غاياته ودوافعه غير أنَّ البعض يرى أنَّ مصطلح (الحوار) يضع الإسلام في موقف الدفاع عن النفس والاعتذار، ويرون أن مفهوم (التعارف)- وهو مصطلح قرآني- يُمثِّل موقعاً إيجابياً وليس دفاعياً عن الأطروحات التي جاءت من الغرب في صراع الحضارات تعبيراً عن الجوانب الفكرية والعملية عندهم، والرؤية الإسلامية هي التي طرحت فكرة (التعارف) في إطار عالمية الإسلام وطبيعة حضارته، والسُنن التي تحدد علاقته مع الحضارات الأخرى، إنَّ الغرب لا يرى في الحضارت الأخرى ما يجعلها تُدير حواراً حضارياً معه لأن عملية توازن القوة المادية هي التي تحكم علاقاتهم، فسياسات الغرب لا تجعل حوار الثقافات أساساً في تشكيل رؤية الغرب للعالم بل إنَّ طرحها لقضايا البيئة، والأسرة، والطفل ترتبط بفكرة الغرب في محاولة بسط سيطرتها الثقافية وأنساقها المعرفية دون اعتبار الآخر ورؤيته وثقافته، الرؤية الإسلامية منطلقها (التعارف) وليس (الصراع)، وهدفها (التنوع) وليس (التنميط)، وأسلوبها (الحُسنى) وليس الإكراه، فالإسلام وحده يملك القدرة على المبادرة الثقافية وليس الاعتذار الثقافي من خلال رؤية تقدِّم البديل الثقافي للأزمة العالمية ذات البُعد القِيمي والثقافي، ينطلق من خصائص الذات الإسلامية المُبادِرة والفاعلة، وليست المُدافِعة أو المعتذرة.

الإسلام بوسطيته ورؤيته عن التعارف الحضاري قادر على الإسهام في التجديد الحضاري العالمي من خلال منظومة القِيم الإسلامية، والإرث الحضاري، وعالمية رسالته.

التحديات الحضارية والثقافية:

لم يكن هدف الهجمة الغربية المتضامنة مع اليهودية لسيطرة على العالم الإسلامي واحتلال أراضيه وثرواته، بل كان إلى جانب ذلك إسقاط النموذج الحضاري الإسلامي واستبداله بحضارة الغرب، لذلك تضافرت القوة العسكرية والاقتصادية مع البُعدين الثقافي والحضاري عبر مُخطط يستهدف العقيدة الإسلامية التي تُمثِّل قلب الأمة وروحها، وتُبرز الخصوصية الحضارية والثقافية للعالم الإسلامي، فالهجمة الأوروبية على العالم الإسلامي وظَّفت كل الأدوات الثقافية من استشراق وتبشير، وجامعات ومدارس وغيرها تدعيماً للهيمنة العسكرية والاقتصادية، وتخريج مجموعات تشبَّعت بأفكار الغرب وأطروحاته، والدعوة إلى ما اعتبروه تحديثاً، وتنويراً، وإصلاحاً لحالة التردي الذي وصل إليه العقل المسلم وبعد ذلك الوصول إلى إحلال النموذج الغربي محل النموذج الإسلامي بكل الوسائل، حتى بالقوة المادية هيمنةً، وتشويهاً، وإقصاء.

إنَّ المواجهة الحالية بين الإسلام والغرب ليست سياسية واقتصادية فحسب، بل إن الدين والحضارة يُمثلان روح المواجهة وأخِر خطوط الدفاع الإسلامي، حيث أصبحا متداخلين متناغمين مع الاقتصاد والسياسة في ظل (العولمة) بأبعادها، ومضامينها، وتجلياتها، وكما يقال فإن العولمة أصبحت إرادية تُمثِّل واجهة الأنموذج العربي الذي يُراد فرضه وهيمنته بالقوة ليس في المجال السياسي أو الاقتصادي بل حتى

المجـال الـثقافي بمفهـومه الواسع، وما على النماذج الأخرى إلا أن تنخرط وتتكـيف مع ما يُراد لها، أو تكون العدو الأول للحضارة الغربية كما قيل عـن الإسـلام الـذي يُمـثِّل دعـوة عالمـية، ويحمـل مقومات التحدي لهذه الحضارة.

إنَّ الـتحدي الـذي يـواجه المسلمين هو أنَّ الغرب في ظل العولمة يريد أن يُسيِّر العالم على المنظومة القيمية للثقافة الغربية، والنظام السياسي والرأسمالـي لتكـتمل خطـتها بعـيداً عـن الجانـب الـثقافي الحضاري، إنَّ مـنظومة القِـيم الإسـلامية تُمـثِّل قدرة المسلمين على انفتاح ثقافي، وبعث حـضاري جديـد، مـن خلال التجديد والتحديث الثقافي الحضاري الذي يُمثِّل واجهة التحدي والصمود.

إنَّ العـالم الإسـلامي يـتفق مع الغرب فيما يطرح من أفكار حول الـتعددية الثقافـية، وحـوار الثقافات والحضارات الذي يتصل بالعلاقات الدولـية والثقافـية العالمـية، أو العـولمة في ظـل الاعـتراف بالخصوصيات الثقافـية، وتجديـد المـشترك بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، والعمل على التجديد الثقافي، والتحديث الحضاري دون مساس بالثوابت الحـضارية والخـصوصيات، ولكـن أسـئلة كـثيرة تطـرح نفـسها في حالـة الدخول في حوار حضاري أو ثقافي يتمثَّل في الأُطر المرجعية التي يتم على أساسـها تحديـد مفاهـيم حقـوق الإنـسان، ونـوع الاضطهاد الديني الذي يفـترض العقـوبة، والتحوُّل الديمقراطي، والقبول بنتائجه وإن كانت على غـير مـا يـتوقع الغرب، وهل يمكن قيام حوار بين طرفين لا يوجد بينهما توازن في القوة، وتشابه في القِيم؟

قائمة المراجع

- ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، بيروت، دار اجياد التراث.
- ابـن تيمـية، أحمد بن عبدالسلام، مجموعة الفتاوى "جمع عبدالرحمن بن محمد القاسم".
- ابـن حجـر العـسقلاني، فـتح الـباري، شـرح صحيح البخاري، دار الفكر.
- ابن حجر العسقلاني، في مناقب الإمام الشافعي.
- ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبدالعزيز.
- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين.
- ابن قيم الجوزية، اعلام الموقّعين عن رب العالمين، القاهرة.
- ابن كثير، البداية والنهاية.
- ابن نبى -مالك- المشكلات الثّقافية.
- البخاري، الأدب المفرد.
- البخاري، صحيح البخاري.
- تشارلز-الأمير- إحساس بالمقدّس- بناء حوريين الإسلام والغرب.
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، بيروت.
- ابن عبد ربه، العقد الفريد.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين.
- أبو حامد الغزالي، ميزان الاعتدال.
- أحمد بن حنبل، الفتح الرباني، مسند الإمام أحمد.
- الجندي، أنور، معلمة الإسلام.
- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
- أبو نعيم الاصفهاني، حلية الأولياء.
- أبو بكر محمد بن حسين الآجرّى، أخلاق العلماء.

- البغدادي، الخطيب، الفقيه والمتفقه.
- جارودي- روجيه- من الإلحاد إلى الإيمان- إعداد: رامي كلاوي.
- الصوبان، أحمد عبدالرحمن، الحوار وأصوله المنهجية وآدابه السلوكية.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء.
- الزمخشري، جار الله، الكشاف في حقائق التنزيل.
- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ت، محمد محي الدين عبدالحميد.
- الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأرب.
- القحطاني، سعيد بن علي، الحكمة في الدعوة.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن.
- نوح، سيّد، منهج أهل السنّة والجماعة.
- علوان، طه جابر، إسلامية المعرفة.
- السعدي، عبدالرحمن، تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن.
- التويجري، عبدالعزيز، الحوار من أجل التعّايش.
- قطب، محمد، مفاهيم ينبغي أن تصحَح.
- البيانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة.
- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار.
- العثمان- سعد: فقه الحوار.
- عمارة، محمد، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام.
- عمارة، محمد، الإسلام والسياسة.
- السّباعي، مصطفى، السنّة ومكانتها في التشريع.
- القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة.
- النّووي، محي الدين، شرح صحيح مسلم.
- محمد خير الشّعال، نداء إلى الإسلاميين، فلنتعلّم للحكمة.
- الماوردي، أد الدنيا والدّين.
- الهيثمي، مجمع الزوائد.

سلسلة الدّراسات التّربويّة الإسلاميّة

الحكمة والحوار

"علاقة تبادليّة"

الأستاذ الدّكتور

عبّــاس محجــوب

٢٠٠٦

جدارا للكتاب العالمي
عمان- الأردن

عالم الكتب الحديث
إربد- الأردن

فهرس الموضوعات